٩
المُسْلِمُ مَعَ مُجْتَمَعِهِ

تمهيد:

المسلم الواعي أحكام دينه اجتماعي بطبعه، لأنه صاحب رسالة في الحياة، وأصحاب الرسالات لا بدّ لهم من الاتصال بالناس، يخالطونهم، ويعاملونهم، ويبادلونهم الأخذ والعطاء.

والإنسان المسلم اجتماعي من الطراز الرفيع، بما لَقِنَ من أحكام دينه الحق، وبما تمثّل من أخلاقه الإنسانية الرفيعة النبيلة التي دعا إليها، وحضّ على التخلّق بها في مجال التعامل الاجتماعي.

وشخصية المسلم الاجتماعية التي استنارت بهَدْي القرآن الكريم، وارتوت من منهل السنة النبوية المطهّرة، شخصية فريدة، لا تقاس بالشخصية الاجتماعية التي ربّتها النظم الوضعية المعاصرة، ولا الشرائع القديمة التي تعب في صياغتها الفلاسفة والمفكرون.

إنها شخصية اجتماعية راقية، كوّنتها مجموعة كبيرة جداً من مكارم الأخلاق، نطقت بها نصوص هذا الدين الحنيف من قرآن كريم وحديث شريف، وجعلت التخلق بها ديناً يثاب المرء عليه، ويحاسب على تركه، فاستطاعت بذلك أن تجعل من شخصية المسلم الصادق نموذجاً فذّاً للإنسان الاجتماعي الراقي المهذّب التقيّ الخيِّر النظيف.

وإن الباحث المطلع على هذه النصوص في مظانها، ليدهش من غزارتها واستيعابها وشمولها ودقتها؛ إذ لم تدع جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية إلا تناولته، وقالت كلمتها فيه، مشيرة إلى المرتقى العالي الوضيء الطهور الذي أراد الإسلام للمسلم أن يسمو إليه، وإنه لسام إليه بلا ريب، متى استقرت حقيقة الإسلام في قلبه، وانسرب هَدْيُه اللألاء في جوانب نفسه، وخالطت بشاشتُه روحَه، وعمِرَت قِيَمُه كيانه.

وقِوام مكوّنات شخصية المسلم الاجتماعية وقوفُه عند حدود الله في سلوكه الاجتماعي ومعاملته للناس. فمن هذا الأصل الكبير من أصول العقيدة الإسلامية تتفرع الأخلاق الاجتماعية التي يتحلّى بها المسلم التقي المرهف في سلوكه، وعلى هذا الأساس المتين يقيم المسلم الصادق علاقاتِه الاجتماعيةَ مع الناس.

صَادِقٌ:

فهو صادق مع الناس جميعاً، لأن هَدْي الإسلام الذي تغلغل في كيانه علّمه أن الصدق رأس الفضائل، وأسّ مكارم الأخلاق، وهو بالتالي يهدي إلى البرّ المفضي بصاحبه إلى الجنة، في حين يهدي الكذب إلى الفجور المفضي بصاحبه إلى النار، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ بقوله:

«إنَّ الصِّدْقَ يَهْدي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدِي إلى الجَنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عندَ الله صِدّيقاً، وإنّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجورِ، وإنَّ الفُجورَ يَهْدي إلى النّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حتّى يُكْتَبَ عندَ الله كَذّاباً»[1].

ومِن هنا كان المسلم الحق صِدّيقاً، يتحرّى الصدق في أقواله وأفعاله، وإنها لمرتبة عالية كريمة، أن يُكتَبَ الإنسان عند ربه صِدّيقاً.

---

(١) متفق عليه.

لا يَغُشُّ وَلا يَخْدَعُ وَلا يَغْدِرُ:

والمسلم الصدوق الذي بلغ هذه المرتبة الرفيعة لا يغُشّ ولا يخدع ولا يغدر؛ ذلك أن مقتضى الصدق النصيحةُ والصفاءُ والإنصافُ والوفاءُ، لا الغشّ والخديعة والمخاتلة والإجحاف والغدر.

إن وجدان المسلم المرهف الصادق لا يطيق الغِشّ ولا يصبر عليه، بل إنه ليَرْتَجِف هلعاً منه، إذ يرى في ارتكابه انخلاعاً من الانتساب للإسلام، يقرره رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم:

«مَنْ حملَ علينا السّلاحَ فليسَ منّا، ومَنْ غشَّنا فليس منّا».

وفي رواية لمسلم أيضاً أن رسول الله ﷺ مرّ على صُبْرَةِ[1] طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعُه بَللاً، فقال:

«ما هذا يا صاحبَ الطّعام؟» قالَ: أصابَتْهُ السّماءُ[2] يا رسول الله، قالَ: «أفَلا جعلتَه فوقَ الطّعام حتّى يراهُ النّاسُ! مَنْ غَشَّ فليسَ مِنّي».

إن مجتمع المسلمين مجتمع يعمره الحب، وتسوده النصيحة، ويغلب على أفراده البِرُّ والصدق والوفاء، ومن هنا لا مكان فيه لغشّاش مخادع مخاتل مراوغ كفور غدّار.

ولقد اشتدّ رسول الله ﷺ بالتنديد بالغِشّ والخديعة والغدر، فلم يكتفِ بنبذ الغشّاش الغدّار، ورَمْيِه بعيداً عن مجتمع المسلمين في الدنيا، بل أعلن أن كل غادر سيُحشَر يوم القيامة، وهو يحمل لواء غَدْرَتِهِ، والمنادي ينادي في ساحة العرض الكبير، دالاً عليه، لافتاً إلى غدرته الأنظار، وذلك في قوله:

---

(١) أي كومة.

(٢) أي المطر.

«لِكُلِّ غادِرٍ لِواءٌ يومَ القِيامَةِ، يُقالُ: هذِهِ غَدْرَةُ فُلانٍ»[١].

فيا لَخَجْلةِ الغدّارين الذين حسبوا أن غَدَراتهم طَوَتْها الأيام، فإذا هي تُنْشَر يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وألويتها مرفوعة بأيديهم.

وإن خجلتهم لَتزدادُ سوءاً وخزْياً يوم القيامة، حين يجدون رسول الله ﷺ، وهو المؤمَّل المُرَجَّى للشفاعة في هذا الموقف الرهيب، يعلن أن ربّ العزة يقف خصماً لهم؛ لأنهم اقترفوا جريمة الغدر الفادحة، وإنها لجريمة كبرى، تحجب عن صاحبها رحمة الله، وتحرمه شفاعة رسوله الكريم:

«قال الله تعالى: ثَلاثَةٌ أنا خَصْمُهُمْ يومَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بي ثُمَّ غَدَرَ، ورَجُلٌ باعَ حُرّاً فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، ورَجُلٌ استَأجَرَ أَجيراً فاسْتَوْفَى منهُ ولَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ»[٢].

إن المسلم الحق الذي أرهف الإسلام مشاعره، وفتّح نوافذ البصيرة في نفسه، لَيَأنَفُ من الخديعة والغشّ والغدر والكذب مهما جرّت عليه هذه الصفات من منافع، ومهما حققت له من مكاسب؛ ذلك أن هَدْي الإسلام يعدّ أصحاب هذه الصفات من المنافقين وإن المنافقين لفي الدَّرْك الأسفل من النار، ولا ناصِر لهم يوم القيامة:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[٣].

ويقول رسول الله ﷺ:

«أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كانَ مُنافِقاً خالِصاً، ومَنْ كانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ منهنَّ كانَ فيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفاقِ حتّى يَدَعَها: إذا اؤْتُمِنَ خانَ، وإذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ، وإذا خاصَمَ فَجَرَ»[٤].

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه البخاري.
(٣) النساء: ١٤٥.
(٤) متفق عليه.

لا يَحْسُد:

ومما يلحق بهذه الصفات القبيحة غير اللائقة بالمسلم التقي: الحسد، ولذلك حذّر الرسول الكريم منه تحذيراً شديداً إذ أخبر أن الحسد والإيمان لا يجتمعان في قلب مؤمن: «لا يَجْتَمِعُ في جَوْفِ عَبْدٍ الإيمانُ والحَسَدُ»(١).

وعن ضَمُرَةَ بن ثعلبة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَزالُ الناسُ بِخَيْرٍ ما لَمْ يَتَحاسَدوا»(٢).

إن من سمات المسلم الحق صفاءَ النفس من الغشّ والحسد، ومن الغدر والضغينة، وإن هذا الصفاء ليدخل صاحبَه الجنة، وما هو من العُبّاد المكثرين من العبادة، القائمين الليل، الصائمين النهار؛ فقد أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن والنسائي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

كنا جُلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: «يَطْلُعُ الآنَ عليكُمْ رجلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَطَلَعَ رجلٌ مِنَ الأنصار(٣)، تَنْطِفُ لحيتُه من وَضوئه(٤)، قد علّق نعليه بيده الشِّمال، فلما كان الغدُ قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجلُ مثلَ المرة الأولى، فلما كان اليومُ الثالثُ قال النبي ﷺ مثلَ مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى. فلما قام النبي ﷺ تبعه(٥) عبدُ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال: إني لاحَيْتُ(٦) أبي فأقسمت إني لا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيتَ أن تؤويني إليك حتى تمضيَ فعلتُ، قال: نعم، قال أنس: فكان عبد الله يحدّث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي فلم يَره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تَعارَّ(٧) وتقلّب على فراشه ذكر الله عزّ وجلّ وكبّر، حتى يقوم

(١) رواه ابن حبان في صحيحه.

(٢) رواه الطبراني، ورواته ثقات.

(٣) هو سعد بن أبي وقاص كما جاء مصرّحاً باسمه في البداية والنهاية لابن كثير ٨/ ٧٤.

(٤) أي من الماء الذي يتوضأ به.

(٥) أي تبع الرجلَ.

(٦) أي خاصمت.

(٧) أي استيقظ من نومه.

لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقولُ إلا خيراً، فلما مضت الثلاث الليالي وكدت أحتقر عمله قلت: يا عبد الله! لم يكن بيني وبين أبي غضبٌ ولا هِجْرةٌ، ولكن سمعتُ رسول الله ﷺ يقول ثلاث مرات: «يَطْلُعُ عليكمُ الآنَ رجلٌ مِنْ أهْلِ الجنّةِ»، فطلعتَ أنتَ الثلاث مرات، فأردتُ أن آويَ إليك فأنظرَ ما عملُكَ فأقْتَدِيَ بكَ، فَلم أرَكَ عملتَ كبيرَ عملٍ، فَما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيتَ، فلما ولّيتُ دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيتَ، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسُدُ أحداً على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله: هذه التي بلغَتْ بك، وهي التي لا نطيق».

إن هذا الحديث الشريف ليدلّ على أثر صفاء النفس من الحقد والحسد، وسلامة الصدر من الضغينة والغدر في تقرير مصير الإنسان في آخرته، ورفع مكانته عند الله، وتقبّل عمله، ولو قلّ. وإن هذا الأثر ليبدو واضحاً جداً بمقارنة هذا الرجل الذي لم يأتِ من العبادة إلا بالقليل، ودخل الجنة بصفاء سريرته وسلامة الناس من أذاه، بالمرأة التي سئل رسولُ الله ﷺ عنها، وهي امرأة تقوم الليل وتصوم النهار، ولكنها تؤذي جيرانها، فقال: «لا خيرَ فيها، هي من أهل النار»[1].

ذلك أن الإنسان الذي ترجح كفته دوماً في ميزان الإسلام هو الإنسان الصادق الصافي الخاليةُ نفسُه من الغشّ والغدر والحسد والضغينة، ولو كان قليل العبادة، فمثَله، على قلة عبادته، كمثَل لَبِنَة متماسكة نظيفة في بناء المجتمع الإسلامي، أما الإنسان الذي طوى صدرَه على مقت الناس وحسدهم وأذاهم وغشهم، فإن كفّته تطيش في ميزان الإسلام، ولو كثرت عبادته، لأن مثَلَه كمثل لبنة هشّة فاسدة في بناء المجتمع، وقد تكون هي

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

وأمثالها سبباً في تداعيه وانهياره، والمسلم النموذجي الحق الذي يريده الإسلام هو الذي جمع بين حسن العبادة وصفاء النفس وحسن المعاملة، فطابقت سريرتُه علانيتَه، وصدَّق فعلُه قولَه، فمن هذا المسلم وأمثاله يرتفع صرح المجتمع الإسلامي الراشد القوي، فإذا هو كما وصفه رسول الله ﷺ بقوله: كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً، وهذا هو المجتمع النظيف المتماسك الراقي الجدير بحمل رسالة الله للناس.

ناصِحٌ:

والمسلم الحق لا يبرأ من هذه الصفات الذميمة فحسب، بل يتحلّى بالخلق الإيجابي البنّاء، خلق النصح الصادق لكل مسلم في مجتمعه، إيمانا منه بأن دينه هو النصيحة بعينها، كما قرر ذلك الرسول ﷺ بقوله:

«الدِّينُ النَّصِيحَةُ»، قُلْنا: لِمَنْ؟ قال: «للَّهِ، ولِكِتابِهِ، ولِرَسُولِهِ، ولأَئِمَّةِ المُسلِمين وعامَّتِهِمْ»[١].

وكان الصحابة الكرام يبايعون الرسول ﷺ على الصلاة والزكاة والنصيحة لكل مسلم، يشهد لذلك قول جرير بن عبد الله رضي الله عنه:

«بايَعْتُ رسولَ الله ﷺ على إقام الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ والنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»[٢].

إن في اقتران النصيحة بالصلاة والزكاة في بيعة هذا الصحابي الجليل لرسول الله ﷺ لدليلاً على أهميتها في ميزان أعمال المسلم، وخطورتها في تقرير مصيره في آخرته، ومن هنا كانت خليقة أصيلة من خلائق المسلم الصادق التقي، الحريص على حسن عاقبته يوم الحساب.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

وتزداد خطورة النصيحة في تقرير مصير المسلم في آخرته حين يلي أمراً من أمور المسلمين، إنها حينئذ المفتاح الذي يلج به جنان الخلد، فإن لم يَحُز عليه في دنياه حُرِّم عليه دخولُها في آخرته وعقباه، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ:

«ما مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيه اللَّهُ رَعِيَّتَهُ، يَموتُ يومَ يموتُ وهوَ غاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إلّا حَرَّمَ اللَّهُ عليهِ الجَنَّةَ»(١). وفي رواية: «فلَمْ يُحِطْها بنُصْحِهِ لَمْ يَجِدْ رائِحَةَ الجَنَّةَ».

وفي رواية لمسلم: «ما مِنْ أميرٍ يَلي أُمُورَ المُسْلِمينَ، ثم لا يَجْهَدُ لهمْ ويَنْصحُ لهمْ إلّا لم يَدْخُلْ معهمُ الجَنَّةَ».

ألا ما أعظمَ مسؤوليةَ الحاكم في الإسلام، ومسؤوليةَ كلّ إنسان ولِيَ أمراً من أمور المسلمين! وما أعظمَ أثرَ النصيحة للرعية في تقرير مصير الراعي، يوم يقوم الناس لرب العالمين. وإذا ما تمثلت لأبصارنا مسؤولية كل واحد منا في دائرته الاجتماعية التي بيّنها الرسول الكريم بقوله: «كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» أدركنا شمول المسؤولية في مجتمع المسلمين، حتى ما يكاد يفلت من قبضتها إنسان، ومن هنا كان المجتمع الإسلامي الحق القائم على هذه المبادىء والقِيَم الربانية، أرقى المجتمعات البشرية وأكثرها أمناً ونظافة واستقامة.

مُوفٍ بالعَهْدِ:

والمسلم الحق الذي ارتوت نفسه من هَدْي الإسلام، يتحلّى أيضاً بالخلق الإيجابي المحبَّب، خلق الوفاء بالعهد، وإنجاز الوعد. ولا نغالي إذا قلنا: إن هذا الخلق من أهم عوامل نجاح الإنسان في مجتمعه، ومن أدلّ الخلائق على رقيّ الإنسان وسموّ منزلته ورفعة مستواه الاجتماعي.

---

(١) متفق عليه.

والمسلم من هذا النمط الراقي من الناس الموفين بالعهد، بل هو أرقاهم على الإطلاق حين يكون مسلماً حقاً، لأن خلق الوفاء بالعهد من آصل الأخلاق الإسلامية، ومن أكثرها دلالة على صحة إيمان المسلم وحسن إسلامه، وقد جاءت بذلك الآيات والأحاديث الكثيرة، تحضّ على التحليّ بهذا الخلق وتشير إلى أنه من علامات الإيمان، وتهدّد المتحلّلين منه، وتؤكد أنه من علامات النفاق:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ (١).

﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ (٢).

فليس العهد كلمة طائرة يلقيها صاحبها، ولا يفي بالتزاماتها كما يفعل كثير من المسلمين اليوم، وإنما هي مسؤولية سيناقَش عليها الحساب.

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ (٣).

إنه عهد الله، أُضيف إليه، فاكتسب الجلالة والقدسية والاحترام، ووجب الوفاء به، مهما تكن الظروف:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ (٤).

فالإخلاف بالوعد، والتحلل من العهد، من المقت السيّء الكبير الذي يكرهه الله لعباده المؤمنين، ولا يريد لهم أن يسفّوا إليه، ولا يخفى ما في الاستفهام في صدر الآية من إنكار يخزى منه المؤمن الوفي، ويَنْدَى له جبينُه حياءً من ربه.

---

(١) المائدة: ١.

(٢) الإسراء: ٣٤.

(٣) النحل: ٩١.

(٤) الصف: ٢.

ويقول الرسول ﷺ:

«آيةُ المنافق ثَلاثٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خانَ»[1]. وفي رواية لمسلم: «وإنْ صامَ وصَلّى وزَعَمَ أنّه مُسْلِمٌ».

إن حسن إسلام المرء لا تؤكده العبادات التي يقوم بها من صيام وصلاة وحج فحسب، كما أسلفت، وإنما تؤكده نفسية الإنسان التي انفعلت بتعاليم الإسلام، وارتشفت من رحيق هداه، حتى غدت تنضح بشذا أخلاقه العالية، وقِيَمه الرفيعة، وأحكامه السمحة، فتراها وقّافة عند حدود الله، ملتزمة أمره، مجتنبة نهيَه، منصاعة لهداه في كل شيء.

ومن هنا ينتفي من حياة المسلم الحق الصادق الكذبُ والإخلافُ بالوعد وخيانةُ العهود والمواثيق، لأنها منافية لخلق الإسلام، ولا توجد إلا في أخلاق المنافقين.

ألا فَلْيَعْلَمْ تلك الحقيقة المرّة كثير من التجار والصنّاع والموظفين، الذين يعدون الناس بإنجاز أعمالهم في وقت محدّد، ثم يخلفون المواعيد، وليعلمها أولئك الذين يتعاهدون على أمر، ثم ينقضون ما تعاهدوا عليه، وكذلك الذين يؤتَمنون على مال أو سرّ أو ورثة أو غير ذلك، ثم يخونون الأمانة. لِيعلمْ هؤلاء جميعاً أنهم في زمرة المنافقين، ولو صاموا وصلّوا وزعموا أنهم مسلمون، وإن المنافقين في الدَّرْك الأسفل من النار.

حَسَنُ الخُلُقِ:

والمسلم الحق حسن الخلق، موطَّأ الكنَف، ليّن القول، عملاً بهَدْي الإسلام، وتأسّياً بالنبي عليه الصلاة والسلام.

---

(١) متفق عليه.

فلقد «كان رسول الله ﷺ، كما يروي خادمه أنس، أحسن الناس خلقاً»[١] ولم يكن أنس رضي الله عنه مبالغاً في قوله، ولم تحمله محبته له على المبالغة، فلقد رأى من حسن خلق الرسول الكريم ما لم تره عين، ولا سمعت به أذن. وندع أنساً رضي الله عنه يحدثنا عن طرف من خلق نبي الإسلام العظيم، فيقول:

«لقد خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشرَ سنين، فما قالَ لي قَطُّ: أفٍّ، ولا قالَ لشيء فعلتُه: لِمَ فعلتَه؟ ولا لشيء لمْ أفعلْهُ: ألا فعلتَ كذا؟»[٢].

ذلك أن رسول الله ﷺ لم يكن فاحشاً ولا متفحّشاً، كما يقول عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان يكرر على أسماع الصحابة قولَه:

«إنَّ مِنْ خِيارِكُمْ أَحاسِنَكُمْ أَخْلاقاً»[٣].

وقولَه:

«إنّ الفُحْشَ والتَّفَحُّشَ لَيْسا مِنَ الإسلامِ في شَيْءٍ، وإنّ أَحسَنَ النّاسِ إسلاماً أحسَنُهُمْ خُلُقاً»[٤].

وقولَه:

«إن مِنْ أَحَبِّكُمْ إليَّ وأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يومَ القيامَةِ أحاسِنَكُمْ أَخلاقاً، وإنَّ أَبْغَضَكُمْ إليَّ وأَبْعَدَكُمْ منّي يومَ القِيَامَةِ الثَّرثارون[٥] والمُتَشَدِّقون[٦]

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه الطبراني وأحمد وأبو يعلى ورجاله ثقات.

(٥) الثرثار: كثير الكلام.

(٦) المتشدّق: المتطاول على الناس بكلامه، ويتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعظيماً لكلامه.

والمُتَفَيْهِقون. قالوا: يا رسول الله، قد عَلِمْنا الثَّرثَارُونَ والمُتَشَدِّقونَ، فما المُتَفَيهِقون؟ قال: «المُتَكَبِّرونَ»(١).

كان الصحابة رضوان الله عليهم يسمعون هذا التوجيه الخلقي العالي من الرسول الكريم، ويرون بأعينهم الخلق الرفيع الذي كان يعامل به الناس، فيعملون بقوله، ويتأسّون بفعله، وبذلك قام مجتمعهم الأمثل الذي ما داناه مجتمع في تاريخ الإنسان.

يقول أنس رضي الله عنه:

«كان النبيُّ رحيماً، وكانَ لا يأتيه أحدٌ إلا وعَدَهُ، وأنْجَزَ له إنْ كان عندَه. وأُقيمت الصّلاةُ، وجاءَه أعرابيٌّ فأخذ بثَوبه فقال: إنّما بقيَ من حاجتي يسيرةٌ، وأخافُ أنساها، فقامَ معه حتى فرَغَ من حاجته، ثم أقبلَ فصَلّى»(٢).

لم يجد رسول الله ﷺ حرجاً في أن يستمع إلى الأعرابي ويقضي حاجته، وقد أقيمت الصلاة، ولم يضق صدره بذاك الأعرابي الذي أخذ بثوبه، وأصرّ على قضاء حاجته قبل الصلاة، لأنه، صلوات الله عليه، كان يبني مجتمع الأخلاق، ويعلّم المسلمين بفعله كيف يجب أن يعامل المسلم أخاه الإنسان، ويقرر لهم المبدأ الخلقي الذي ينبغي أن يسود مجتمع المسلمين.

وإذا كان حسن الخلق عند غير المسلمين يرجع إلى حسن التربية وسلامة التنشئة ورقي التعليم، فإن حسن الخلق عند المسلمين يعود قبل هذا كله إلى هَدْي الدين الذي جعل الخلق سجيّة أصيلة في الإنسان المسلم، ترفع من منزلته في الدنيا، وترجّح كفة ميزانه في الآخرة، إذ ما من عمل أثقل

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

في ميـزان الإنسان المؤمن يـوم الحساب من حسن الخلق، كمـا أخبر بـذلـك رسول الله ﷺ بقوله:

«ما شَيْءٌ أَثْقَلُ في مِيزانِ المُؤمِنِ يومَ القِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ؛ فإنَّ اللَّهَ تعالى لَيُبْغِضُ الفاحِشَ البَذِيءَ»(١).

بـل إن الإسلام جعـل حسن الخلق من كمـال الإيمـان، إذ عـدّ أحسن الناس خلقاً أكملَهم إيماناً، وذلك في قول الرسول ﷺ:

«أَكْمَلُ المؤمِنِينَ إيماناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً»(٢).

وجعل أحسن الناس خلقـاً من أحب عباد الله إليـه يشهد لـذلك حـديث أسامة بن شُرَيْك، قال:

كنـا جلوساً عنـد النبـي ﷺ كأنمـا على رؤوسنـا الـطيـر، مـا يتكلم منـا متكلم، إذ جـاءه نـاس فقـالـوا: مَنْ أحبُّ عبـاد الله إلى الله تعـالى؟ قـال: «أَحْسَنُهُمْ أَخْلاقاً»(٣).

ولا غـروَ أن يكون أحسنُ النـاس خلقـاً أحبَّهم إلى الله، ذلـك أن حسن الخلق في شريعة الإسلام شيء عظيم، إنـه لأثقلُ مـا يوضـع في ميزان العبـد يوم القيامـة كما رأينا، وإنه لَيعدِلُ الصلاة والصيام، ركني الإسـلام الكبيرين، كما قرر رسول الله ﷺ في قوله:

«لا يُـوضَعُ في المِيـزان أَثْقَـلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وإنَّ حُسْنَ الخُلُقِ لَيَبْلُغُ بصاحِبِهِ دَرَجَةَ الصَّوْمِ والصَّلاةِ»(٤). وفي رواية: «إنَّ العَبْدَ لَيُدْرِكُ بحُسْنِ خُلُقِه دَرَجَةَ الصّائمِ القائِمِ».

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٤) رواه الترمذي والبزار ورجاله ثقات.

ومن هنا كان رسول الله ﷺ يؤكد أهمية حسن الخلق للصحابة الكرام، ويحضّهم على التجمّل به، ويحبّبه إلى نفوسهم بأساليب شتى من قوله وفعله، إدراكاً منه لأثره الكبير في تهذيب الطباع، وتزكية النفوس، وتجميل الخلائق، ومن ذلك قوله لأبي ذر:

«يا أبا ذَرّ، ألا أَدُلُّكَ على خَصْلَتَيْنِ، هُما أَخَفُّ على الظَّهْر، وأَثْقَلُ في الميزانِ مِنْ غَيْرِهما؟ قالَ: بلى يا رسولَ الله، قالَ: «عَلَيْكَ بحُسْنِ الخُلُقِ، وطُولِ الصَّمْتِ. فَوَ الذي نَفْسي بِيَدِه ما تَجَمّلَ الخلائِقُ[1] بمثلِهما»[2].

وقولُه:

«حُسْنُ الخُلُقِ نَماءٌ، وسُوءُ الخُلُقِ شُؤْمٌ، والبِرُّ زِيادَةٌ في العُمُرِ، والصَّدقَةُ تَمنَعُ مِيتَةَ السُّوءِ»[3].

وكان من دعائه ﷺ: «اللّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقي، فأَحْسِن خُلُقي»[4].

إن دعاء الرسول الكريم أن يحسِّن الله خلقَه، وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[5] لَدليلٌ عميقٌ على اهتمامه الشديد بحسن الخلق، ورغبتِه الحارّة في أن يستزيد المسلمون دوماً منه، مهما سَمَوْا في معارجه الوضاء، كما كان يستزيد نبيهم العظيم منه بهذا الدعاء. وحسن الخلق كلمة جامعة، يندرج تحتها كل خلق كريم يجمّل الإنسان، ويزكّيه، ويسمو به، كالحياء والحلم والرفق والعفو والسماحة والبِشْر والصدق والأمانة

---

(١) الخلائق: جمع الخليقة، والخليقة هنا: الناس، ففي القاموس: «الخليقة: الناس كالخَلْق». وفي الصحاح: «الخليقة: «الخَلْق، والجمع: الخلائق. يقال: هم خليقة الله أيضاً».

(٢) رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط، ورجال أبي يعلى ثقات.

(٣) رواه أحمد، ورجاله ثقات.

(٤) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٥) القلم: ٤.

والنصيحة والاستقامة وصفاء السريرة، وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

بيد أن الباحث المستقصي نصوص التوجيه الاجتماعي في الإسلام، يجد نفسه أمام حشد كبير جداً من النصوص التي تحضّ على كل خلق من هذه الأخلاق الاجتماعية الرفيعة، مما يدل على عناية الإسلام البالغة في تكوين شخصية المسلم الاجتماعية تكويناً دقيقاً، لا يكتفي بالعموميات، بل يقف عند كل جزئية من الجزئيات الخلقية التي تكوّن جانباً من جوانب الشخصية الاجتماعية المتكاملة. وهذا الاستيعاب والشمول لم يتوافرا في منهج من مناهج التربية الاجتماعية توافرهما في منهج هذا الدين.

ولا مناص للباحث من الوقوف عند هذه النصوص جميعاً، والإلمام بما تضمنته من هَدْي وتوجيه وتشريع، ليستطيع تجلية الشخصية الاجتماعية الراقية التي تميّز بها المسلم التقيّ الواعي وتفرّد.

ولقد وقفنا فيما سلف عند بعض هذه النصوص التي جلّت جوانب من شخصية المسلم المستجيب لهَدْي دينه، الوقّاف عند أمر ربه ونهيه، وتبين لنا من خلالها أن المسلم الحق صادق، وفيّ، لا يغش، ولا يخدع، ولا يغدر، ولا يخون، ولا يحسد، حسن الخلق مع الناس جميعاً.

وها نحن أولاء نمضي مع النصوص الأخرى الكثيرة التي تصوغ شخصية المسلم الاجتماعية، وتحدد طابعها المتميّز في شتى النواحي، ومنها أنه:

مُتَّصِفٌ بِالْحَيَاءِ:

فالمسلم الحق يتصف بالحياء تأسّياً بالنبي ﷺ الذي كان المثل الأعلى في الحياء، يشهد لذلك قول الصحابي الجليل أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه:

«كانَ رسولُ الله ﷺ أشدَّ حَياءً مِنَ العَذْراءِ في خِدْرِها، فإذا رَأَى شيئاً يَكْرَهُهُ عَرَفْناهُ في وَجْهِهِ»[١].

والحياء ــ كما عرّفه العلماء ــ خلق نبيل يبعث دوماً على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق أصحاب الحقوق، ومن هنا أشاد به الهَدْي النبوي في عدد من الأحاديث الشريفة، وعدّه خيراً محضاً على صاحبه وعلى المجتمع الذي يعيش فيه.

فعن عمران بن حصين رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ:

«الحَياءُ لا يَأْتي إلّا بِخَيْرٍ»[٢]. وفي رواية لمسلم: «الحَياءُ خَيْرٌ كُلُّهُ. أو قال: الحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمانُ بِضْعٌ وسَبْعُونَ أو بِضْعٌ وسِتُّونَ شُعْبَةً، فأفضَلُها قولُ لا إلَهَ إلّا اللَّهُ، وأدناها إماطَةُ الأذَى عَنِ الطّريقِ، والحَياءُ شُعْبَةٌ من الإيمانِ»[٣].

إن المسلم الصادق التقي حَييّ مهذَّب دَمِث مرهَف الشعور، لا يصدر عنه فعل قبيح يؤذي الناس، ولا يقصّر في حق أحد ذي حق.

ذلك أن خلق الحياء فيه يحجبه عن ذلك كله، ويذوده عن الوقوع فيه، لا حياءً وخجلاً من الناس فحسب، وإنما حياءً من الله تعالى، وتحرّجاً أن يَلْبِسَ إيمانَه بظلم، إذ الحياء شعبة من شعب الإيمان. وهذا أرقى ما وصل إليه الإنسان من تخلّق بالحياء.

إن ربط البواعث الخلقية بالإيمان بالله واليوم الآخر، يميز الإنسان

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.

المسلم عن غيره بالإخلاص العميق في الأخلاق التي يتصف بها، وبثبات هذه الأخلاق وديمومتها فيه، مهما تقلبت الأيام به وتغيرت الأحوال؛ ذلك أنها صادرة عن وجدان حي مرهف يستحيي من مقارفة الخيانة، وحياؤه من الله المطّلع على الخبيء من أسراره، قبل حيائه من الناس المطّلعين على الظاهر من أخباره، وهذا الحياء من الله هو مفرق الطريق بين أخلاق المسلم وأخلاق غير المسلم.

رَفِيقٌ بِالنّاسِ:

والمسلم الحق لطيف متأنٍّ رفيق بالناس، حين يحسُن اللطف، ويُستَحب الرفق، وتُحمَد الأناة؛ ذلك أن اللطف والرفق والأناة خصال حميدة، يحبها الله في عباده المؤمنين، لأنها تُكْسِبُ مَنْ تحلّى بها دماثة الخلق، ورقة الجانب، وحسن العشرة، وتجعله قريباً من نفوس الناس، محبباً إلى قلوبهم:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1].

ولقد جاءت النصوص متضافرة متتابعة، تُحبِّب في الرفق، وتحضّ عليه، وتؤكد أنه خُلُقُ عالٍ ينبغي أن يسود مجتمع المسلمين، ويتصف به كل مسلم عاش في هذا المجتمع، ووعى أحكام دينه، واستنار بهديه اللألاء، وحسب المسلم أن يعلم أن الرفق من صفات الله تعالى العليا التي أحبها لعباده في الأمور كلها:

«إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ»[2].

---

(١) فصلت: ٣٤، ٣٥.

(٢) متفق عليه.

وإنه لخلق عظيم يثيب الله عليه من عطائه الجزل ما لا يثيبه على خلق آخر: «إنَّ اللَّهَ رَفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، ويُعْطِي على الرِّفْقِ ما لا يُعْطِي على العُنْفِ وما لا يُعْطِي على ما سِواهُ»(١).

ويشيد الهَدْي النبوي العالي بالرفق، فيجعله زينة كل شيء، ما حلّ في شيء إلا زانه وحبّبه إلى النفوس والأبصار، وما نُزِع من شيء إلا شانه ونفّر منه القلوب والأرواح:

«إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شَيْءٍ إلا زانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إلا شانَهُ»(٢).

وكان الرسول الكريم صلوات الله عليه يعلّم المسلمين الرفق في معاملة الناس، ويسدّدهم إلى التصرف اللبق الأمثل الذي يليق بالمسلم الداعية إلى دين الله الرحيم الرفيق بالعباد، مهما كان الموقف مثيراً للحفائظ، داعياً للغضب والاشمئزاز.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بالَ أعرابيٌّ في المسجد، فقامَ الناسُ إليه ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ: «دَعُوهُ وأريقوا على بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ ماءٍ أو ذَنوباً(٣) مِن ماءٍ، فإنّما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرينَ، ولمْ تُبْعَثوا مُعَسِّرينَ»(٤).

فبالرفق والتيسير واللّين والسماحة تُفتَح مغاليق القلوب، ويدعى الناس إلى الحق، لا بالعنف والتعسير والشدّة والمؤاخذة والزجر، ومن هنا كان من هَدْي الرسول الكريم في هذا الباب:

«بَشِّروا ولا تُنَفِّروا، ويَسِّروا ولا تُعَسِّروا».

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) السجل: الدلو الممتلئة ماء، وكذلك الذَّنوب.

(٤) رواه البخاري.

(٥) متفق عليه.

ذلك أن الناس ينفرون بطبائعهم من الفظاظة والخشونة والعنف، ويألفون الرقة والدماثة واللين والرفق، ومن هنا كان قول الله تبارك وتعالى لنبيه الكريم:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (١).

وإنه لقول خالد، ودستور مقيم ثابت، لكل داعية تصدّى لدعوة الناس إلى الهدى، إذ عليه أن يحسن التأتّي إلى قلوبهم، ويسلك سبيل الرفق واللباقة واللّين، ولو كان المدعوّ من الطّغاة العُتاة الظالمين، وهذا ما زوّد الله به نبيَّه موسى عليه السلام وأخاه هرون حين أرسلهما إلى فرعون:

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (٢).

فلا بدع أن يكون الرفق في هَدْي هذا الدين هو الخيرَ كلَّه، مَنْ أُوتيه فقد حاز الخير كله، ومَنْ حُرِمَهُ حُرِمَ الخيرَ كلَّه، وذلك في الحديث الذي رواه جرير بن عبد الله، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيْرَ» (٣).

ولقد بيّن الهَدْي النبوي العالي أن هذا الخير ينصبّ على الأفراد والبيوت والأقوام إذا ساد حياتهم الرفق، وكان من خلائقهم الغرّ الحسان، نجد ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها الذي قال فيه الرسول ﷺ لها:

«يا عائِشَةُ ارْفِقي فإنّ اللَّهَ إذا أرادَ بأهلِ بَيْتٍ خيْراً دَلَّهُمْ على الرِّفْقِ» (٤).

وفي رواية: «إذ أرادَ اللَّهُ بأهلِ بَيْتٍ خيراً أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرِّفْقَ» (٤).

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) طه: ٤٣.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

وعن جابر أن النبي ﷺ قال: «إذا أرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ خَيْراً أَدْخَلَ عليهِمُ الرِّفْقَ»(١).

وأي خير أعظم من خليقة يتخلق بها الإنسان، فتكون له وقاية من النار؟ كما أخبر بذلك الرسول الكريم في حديث آخر فقال:

«أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ على النار، أو بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النّارُ؟ تَحرُمُ على كُلِّ قَرِيبٍ هَيّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ»(٢).

ويسمو الهَدْي النبوي الكريم بالإنسان، وهو يغرس فيه خلق الرفق، فيطالبه بالرفق حتى بالحيوان الذبيح، ويعدّ ذلك من الإحسان، أعلى المراتب التي يرقى إليها الأتقياء الصالحون:

«إنَّ اللَّهَ كتبَ الإحْسانَ على كُلِّ شَيْءٍ، فإذا قَتَلْتُمْ فأَحْسِنوا القِتْلَةَ، وإذا ذَبَحْتُمْ فأَحْسِنوا الذِّبْحَةَ، ولْيُحِدَّ أحدُكُمْ شَفْرَتَهُ، ولْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»(٣).

ذلك أن الرفق بالحيوان الأعجم الذبيح دليل على رقة نفس الإنسان الذي يذبحه، وعلى تمثّلها الرحمةَ بكل ذي روح، ومَنْ وقَرَت في نفسه هذه المعاني في معاملته لذوي الأرواح من الحيوان، كان بالإنسان أرفق وألطف، وإلى هذا الهدف البعيد ترمي توجيهات الإسلام لكل مسلم بالرفق حتى بالحيوان.

رَحِيمٌ:

والمسلم الواعي أحكام دينه، المنفعل بتعاليمه السمحة: رحيم، تتفجر ينابيع الرحمة من قلبه؛ إذ يدرك أن رحمة العباد في الأرض سبب لرحمة السماء تنهلّ عليه بنداها البَرود:

---

(١) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

(٣) رواه مسلم.

«اِرْحَمْ مَنْ في الأَرْضِ يَرحَمْكَ مَنْ في السَّماءِ»[١].

ولأنه تعلّمَ من هَدْي دينه أن:

«مَنْ لم يَرْحَمِ النَّاسَ لمْ يَرْحَمْهُ اللَّهُ»[٢].

وأنَّ: «الرَّحْمَة لا تُنْزَعُ إلاّ مِنْ شَقِيّ»[٣].

بل إن المسلم الحق الواعي لتتسع في نفسه دائرة الرحمة، فلا يقصرها على أهله وأولاده وذوي قرابته وصداقته فحسب، بل يشمل بها الناس جميعاً؛ إذ يسمع الهَدْي النبوي يعمّ بها الناس جميعاً ويجعلها من شروط الإيمان، وذلك فيما رواه أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ:

«لَنْ تُؤْمِنوا حتّى تَراحَموا، قالوا يا رسولَ الله، كُلُّنا رَحيمٌ، قال: إنّه ليسَ برَحْمَةِ أَحَدِكمْ صاحبَهُ، ولكنّها رحمةُ الناسِ، رحمةُ العامَّة»[٤]

إنها الرحمة العامة الشاملة، رحمة الناس عامة، يفجّرها الإسلام في قلب الفرد المسلم، ليغدو مجتمع المسلمين متراحماً، يموج بالمحبة الصادقة، والنصيحة الخالصة، والتعاطف العميق.

وكان رسول الله ﷺ مثالاً فذّاً للرحمة، تجسّدت فيه معانيها، وفاضت بها نفسه، حتى إنه ليكون في الصلاة فيسمع بكاء الصبي، فتأخذه الرحمة بأمه الوَلْهَى لبكاء طفلها، فيوجز في صلاته، وذلك فيما أخرجه الشيخان عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

---

(١) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه الطبراني وإسناده حسن.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٤) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

إنّي لَأَدْخُلُ الصَّلاةَ، وأنا أُريدُ أَنْ أُطِيلَهَا، فأسمَعُ بُكاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ في صلاتي مِمّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكائِهِ».

وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: أتقبّلون صبيانكم؟ فما نُقَبِّلُهم. فقال النبي ﷺ:

«أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟»(١).

وقبّل الرسول الكريم الحسَن بن علي رضي الله عنهما وعنده الأقرع بن حابس التميمي، فقال الأقرع: إن لي عشرةً من الولد ما قبلت منهم أحداً. فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال:

«مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ»(٢).

وأراد عمر رضي الله عنه أن يولّي رجلاً على المسلمين، فسمعه يقول قولة الأقرع بن حابس: إنه لا يقبّل صبيانه، فَعَدَل عمر عن توليته قائلاً: إذا كانت نفسك لا تبضّ بالرحمة لأولادك، فكيف تكون رحيماً بالناس؟ والله لا أولّيك أبداً، ثم مزّق الكتاب الذي أعده لتوليته.

ولقد وسّع رسول الله ﷺ دائرة الرحمة في حسّ الإنسان المسلم فإذا هي تشمل الحيوان أيضاً فضلاً على الإنسان، وذلك فيما كان ينثره على أسماع المسلمين من هَدْي حكيم؛ فقد روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«بَيْنَما رَجُلٌ يَمْشي بطَريقٍ اشتَدَّ بهِ العَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْراً، فَنَزَلَ فيها فَشَرِبَ، ثم خرجَ، فإذا كلبٌ يلهثُ، يأكُل الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فقالَ الرجلُ: لقد بَلَغَ هذا الكلبَ مِنَ العَطَشِ مثلُ الذي كانَ بَلَغَ مِنّي، فنزلَ البئرَ، فَمَلأَ خُفَّهُ

(١) رواه الشيخان.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

ماءً، ثُمّ أمْسَكَهُ بِفِيه حتّى رَقِيَ، فسَقَى الكلبَ، فشكرَ اللَّهُ لهُ، فَغَفَرَ لهُ». قالوا: وإنّ لنا في البهائِم لَأَجْراً؟ قال: «في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»(١).

وروى الشيخان أيضاً عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال:

«عُذِّبَت امرأةٌ في هِرَّةٍ حَبَسَتْها حتّى ماتَتْ جُوعاً، فدَخلَتْ فيها النّارَ. قال: فقالوا ــ والله أعلمُ ــ : لا أنتِ أَطْعَمْتِهَا ولا سَقَيْتِها حينَ حَبسْتِها، ولا أنتِ أَرْسَلْتِها، فأكَلَتْ مِنْ خَشاشِ الأَرْضِ».

ويبلغ رسول الله ﷺ شأو الرحمة العالي، إذ نزل منزلاً فجاءت حُمَّرَةٌ ترف على رأسه الشريف، وكأنها تلوذ به شاكية له ظلم رجل أخذ بيضتها، فقال: «أيُكمْ فجَعَ هذه ببَيْضَتِها؟ فقال: رجلٌ: يا رسول الله، أنا أخذتُ بَيْضَتَها، فقالَ النبي ﷺ «ارْدُدْها رَحْمةً لَها»(٢).

لقد أراد رسول الله ﷺ في هذا الموقف أن يغرس في حسّ المسلمين معنى الرحمة الواسع الشامل، ليغدو المسلمْ رحيماً بطبعه، حتى بالحيوان؛ لأن من كان له قلب يحنو على الحيوان، لا يقسو على أخيه الإنسان.

كان رسول الله ﷺ يذوب رحمة للإنسان والحيوان، وكان لا يني يعلّم المسلمين أن يكونوا كذلك، لكي تعمّ الرحمة دنيا المسلمين، وتغمرَ مجتمعاتِهم وأوطانَهم، ومتى شاعت الرحمة في الأرض انهلّت سكائب رحمة الله عليها وعلى ساكنيها من السماء، مصداقاً لقول الرسول الكريم:

اِرْحَمْ مَنْ في الأَرْضِ يَرْحَمْكَ مَنْ في السَّماءِ»(٣).

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٣) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

عَفُوٌّ غَفُورٌ:

والمسلم التقي المستجيب لهَدْي دينه عفوّ غفور، والعفو خلق إنساني عالٍ، أشادت به النصوص القرآنية إشادة بالغة، وجعلت المتخلقين به من أرقى النماذج التقيّة في الإسلام، إذ أدخلهم في زمرة المحسنين الذين فازوا بمحبة الله ورضوانه:

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (١).

ذلك أنهم كظموا غيظهم ولم يحقدوا ولم يضطغنوا، بل تحرروا من وِقْر الضغينة والحقد، وانطلقوا في آفاق العفو والمغفرة والصفح والتسامح، ففازوا بصفاء النفس وغبطتها ونقائها وراحتها، وبما هو أكبر من ذلك، فازوا بمحبة الله ورضوانه.

إن العفو والصفح والمسامحة مرتقى عالٍ لا يستطيع بلوغه إلا الذين انفتحت مغاليق قلوبهم لهَدْي الإسلام، وانفعلت نفوسهم بأخلاقه السمحة، فآثروا ما عند الله من مغفرة وثواب وتكريم على ما هجست به النفوس من حب الانتصار والانتقام والانتصاف.

ولقد سلك القرآن الكريم أبرع أسلوب في دفع النفس الإنسانية إلى ذلك المرتقى العالي الصعب، إذ قرر أن الذي أصابه البغي له أن ينتصر لنفسه ويرد عنها البغي والعدوان؛ ذلك أن جزاء السيئة سيئة مثلها، ولكنه لم يدع الإنسان الذي أصابه الحيف والبغي من أخيه لعاطفة التشفّي والانتصار والانتقام، بل أخذ بيده برفق إلى مرتقى الصبر والغفران والتسامح، وأكد له أن بلوغ ذلك المرتقى من عزم الأمور:

---

(١) آل عمران: ١٣٤.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[1].

وحينما اجتاحت موجةُ الحزن نفسَ أبي بكر لِما سمع من حديث الإفك، تلوكه بعض الألسنة الآثمة، فتنال من ابنته السيدة عائشة أم المؤمنين، آلى على نفسه أن يقطع عونه عن أولئك الجاحدين للفضل ممن خاضوا في هذا الحديث الآثم، فتنزَّل قوله تعالى فيه:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

إن مجتمع المؤمنين لا تقوم المعاملة بين أفراده على المؤاخذة والمحاسبة والانتصار للذات والانتصاف لها في كل صغيرة وكبيرة، وإنما تقوم فيه المعاملة بين الأفراد على المسامحة والتغاضي والصفح والصبر، وهذا ما دعت إليه نصوص الإسلام، وحضّ عليه هَدْيُه العالي القويم:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[3].

إن السيئة إذا قوبلت دائماً بالسيئة أوغرت الصدور، وأرّثت الأحقاد، وأنبتت الضغائن. أما إذا قوبلت السيئة بالحسنة أطفأت أُوار الغضب، وهدّأت من فورة النفس، وغسلت أدران الضغينة، فإذا المتعاديان يصبحان صديقين

---

(١) الشورى: ٤٠ ــ ٤٤.

(٢) النور: ٢٣.

(٣) فصلت: ٣٤، ٣٥.

حميمين، بكلمة طيبة، أو بسمة حانية من أحدهما، وإنه لفوز عظيم لمن دفع السيئة بالتي هي أحسن، لا يناله إلا ذو حظ عظيم، كما أشارت الآية الكريمة، بشيء من الصبر على السيئة التي ووجه بها، فصبر، وقابلها بالحسنة.

هذا هو خلق المؤمن في مجتمع المؤمنين، تضافرت الآيات الكريمة على تأصيله في نفوسهم، ومن هنا كانت تطلب من المؤمن في مثل هذه المواقف أن يكظم غيظه، ويعفو، ويصفح الصفح الجميل الذي لا يترك وراءه أثراً من حقد أو مَوْجدة أو ضغينة:

﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ (١).

ولا تقلّ الأحاديث الشريفة عن الآيات الكريمة احتفالاً بهذا الخلق الإنساني النبيل، خلق العفو والتسامح، وحضّاً على تأصيله في نفوس المسلمين، واصفةً السلوك التطبيقي العالي لهذا الخلق الذي اتصف به رسول الله ﷺ، قدوة المسلمين وإمامهم ومربّيهم، داعيةً إلى الاقتداء به والسير على هداه:

فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «ما ضَرَبَ رسولُ الله ﷺ شيئاً قَطُّ بيده، ولا امرأةً ولا خادماً، إلا أن يُجاهِدَ في سبيلِ الله، وما نِيلَ منهُ شيءٌ قطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِنْ صاحِبِهِ، إلا أن يُنتَهَكَ شيءٌ من محارِمِ اللَّهِ تَعالى، فَيَنْتَقِمُ للَّهِ تَعالى(٢).

كان صلوات الله عليه يتمثّل توجيه ربّ العزّة له:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(٣).

---

(١) الحجر: ٨٥.

(٢) رواه مسلم.

(٣) الأعراف: ١٩٩.

ويتمثّل قولَه تعالى:

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[١].

فإذا هو آية فريدة من آيات الخلق الرباني، يسع الناس بخلقه العظيم، فلا يقابل إساءتهم بإساءة، بل يقابلها بخلق العفو والعرف والإعراض عن الجاهلين، ويدفعها بالتي هي أحسن:

فعن أنس رضي الله عنه قال: كنتُ أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه بُرْدٌ نَجْرانيٌّ غليظُ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ فجبَذَه جَبْذَةً شديدة، فنظرتُ إلى صفحة عاتق النبي ﷺ، وقد أثَّرَتْ بها حاشيةُ البُرد من شدّة جَبْذَته، ثم قال: يا محمدُ مُرْ لي مِنْ مالِ اللَّهِ الذي عندَكَ، فالتفَتَ إليه، فضحكَ، ثم أمرَ له بعَطاءٍ»[٢].

وبلغ من أصالة خلق العفو وعمقه في نفسه الشريفة أنه عفا عن المرأة اليهودية التي أهدت إليه شاة مسمومة، وذلك فيما رواه الشيخان وغيرهما أن امرأة يهودية أهدت رسول الله ﷺ شاة مسمومة، فأكل منها رسول الله ﷺ، وأكل رهطٌ من أصحابه معه ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «أَمْسِكُوا فإنّها مَسْمومَة». وجيءَ بالمرأة إلى رسول الله ﷺ، فقال لها: «ما حَمَلَكِ على ما صَنَعْتِ؟» قالتْ: أردتُ أن أعلمَ إن كنتَ نبياً فسَيُطْلِعُكَ اللَّهُ عليه، ولن تَضُرَّك. وإنْ لم تكنْ نبيّاً استرَحْنا منكَ. قالوا: ألا نقتلُها؟ قال: «لا»، وعَفا عنها.

ولمّا عصت دَوْسٌ، وأبت الإذعان لأمر الله ورسوله، جاء الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال: إن دوساً قد عصت وأبت،

---

(١) فصلت: ٣٤.

(٢) متفق عليه.

فادعُ الله عليهم، فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة ورفع يديه، فقال الناس: هلكوا. ولكن رسولَ الله ﷺ الرحيمَ الحانيَ السَّمْحَ المشفقَ على العباد أن يمسّهم عذاب الله راح يدعو لدوس قائلاً: «اللّهمّ اهْدِ دَوْساً وائْتِ بهمْ، اللّهمّ اهْدِ دَوساً وائتِ بهمْ، اللهم اهْدِ دَوْساً وائْتِ بهمْ»[١].

وكان صلوات الله عليه يغرس في نفوس المسلمين دوماً خلق العفو والتسامح، وإن قوبلوا بالصدّ والإعراض والقطيعة؛ إذ كان يدرك بثاقب نظرته التربوية التي زوّده الله بها أن الناس يستجيبون بالخلق العالي السمح أكثر مما يستجيبون بالشدّة والقطيعة والعنف، ومن هنا كان من هَدْيه القويم لعقبة بن عامر حين قال: يا رسول الله، أخبرني بفواضِل الأعمال، فقال: «يا عُقْبَةُ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ». وفي رواية: «واعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ»[٢].

سَمْحٌ:

والمسلم الواعي أحكام دينه سمح في معاملته الناس؛ إذ يدرك أن ليس كالسماحة من خلق يجلب للإنسان الخير في دنياه وآخرته. إنه بخلقه السمح اللّيّن الرضيّ ينفذ إلى قلوب الناس فيحبونه، وبخلقه السمح اللّيّن الرضيّ يستحق مرضاة الله وعفوه ورحمته، وهذا ما نطقت به النصوص الثابتة من هَدْي الرسول الكريم:

فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحاً إذا باعَ، وإذا اشْتَرى، وإذا اقْتَضَى»[٣].

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات.

(٣) رواه البخاري.

وعن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كان قَبْلَكُمْ، فلَمْ يُوجَدْ لَهُ مِنَ الخَيْرِ إلاّ أَنَّهُ كانَ رَجُلاً يُخالِطُ النّاسَ، وكانَ مُوسِراً، فكانَ يأمُرُ غِلْمانَهُ أنْ يَتجاوَزوا عَنِ المُعْسِر. قالَ اللَّهُ عزّ وجلّ: فَنحنُ أَحَقُّ بذلكَ منهُ، فتَجاوزوا عنهُ»(١).

ألا ما أثقلَ هذا الخُلُقَ في ميزان الإنسان! وما أحوجَ هذا الإنسانَ إليه يوم العرض الكبير وساعاته العصيبة الشِّداد!

طَلِيقُ الوَجْهِ:

ومن مستلزمات هذا الخلق السمح اللَّيِّن أن يكون صاحبه مع الناس طلق المحيّا، مفترّ الأسارير، تعلو الابتسامة وجهَه، ويطفح البِشْر من محيّاه؛ وهذا كله من حسن الخلق، ومن المعروف الذي حضّ عليه الإسلام.

ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شيئاً، ولَوْ أن تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلِيقٍ».

وأخرج الشيخان عن الصحابي الجليل جرير بن عبد الله أنه قال: «ما حَجَبَني رسولُ الله ﷺ منذُ أسْلَمْتُ، ولا رآني إلا تبسّمَ».

إن المجتمع الذي تشيع السماحة والود والابتسام بين أفراده لهو مجتمع إنساني راقٍ متوادٌّ متماسك، يُكرَّم فيه الإنسان، وتُحترَم الأخلاق، وتسود القيَم الإنسانية العليا، وهذا هو المجتمع الإسلامي الذي تضافرت النصوص والمبادىء الإسلامية التربوية على إنشائه، ليكون غرّة في جبين المجتمعات، وإننا لنلمس الفرق الكبير بين هذا المجتمع الرباني وبين المجتمعات المادية التي يعيش فيها الإنسان في جفاف عاطفي قاتل، لا يهشّ لجار أو قريب، ولا يكاد يفترّ ثغره عن ابتسامة حب لصديق، وإنما هو دوماً مهموم مشغول

(١) رواه مسلم.

سادر في متطلبات الحياة المادية التي أطفأت فيه شعلة العاطفة الإنسانية، وجففت ينابيع الريّ الروحي، وجعلته دائراً في فلكها كالدوّامة، لا يكاد يهدأ ولا يقرّ له قرار.

خَفِيفُ الظِّلِّ:

والمسلم خفيف الظل مع الناس، محبّب العشرة لهم، يخالطهم ويمازحهم عندما يحسن المزاح وتلطف المداعبة، وهو في مزاحه لا يغلو ولا يشتطّ ولا يؤذي، كما هو في جِدّه لا يقسو ولا يتزمت ولا يتجافى؛ فمزاحه هو المزاح الإسلامي المشروع السمح الذي لا يخرج به عن دائرة الحق، كما كان شأن الرسول ﷺ وصحابته الكرام في مزاحهم ومداعبتهم، فقد أُثِر عن الصحابة أنهم قالوا للرسول الكريم: إنك تداعبنا، فقال:

«إنّي لا أقولُ إلّا حَقّاً»[1].

فالرسول ﷺ كان يمزح، ولكنه كان لا يقول في مزاحه إلا حقاً، وكذلك كان الصحابة الكرام، ولهم في المزاح والمداعبة أخبار طريفة، كانت تجري بينهم وبين الرسول الكريم.

من هذه الأخبار ما روته كتب الحديث والسِّيَر من أن رسول الله ﷺ كان يمازح طفلاً صغيراً من أبناء الصحابة يكنى أبا عُمَير، له طائر يلعب فيه. وفي ذات يوم رآه حزيناً، فقال: ما لي أرى أبا عمير حزيناً؟ قالوا: مات نُغَرُه الذي كان يلعب به يا رسول الله، فجعل النبي ﷺ يقول مداعباً الطفل: «أبا عُمير، ما فَعَل النُّغَيْر[2]؟»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٢) النُّغَير: تَصغير النُّغَر، وهو طائر يشبه العصفور.

(٣) حياة الصحابة٣/١٤٩.

وجاء رجل إلى النبي ﷺ يستحمله، فقال له النبي ﷺ ممازحاً: «إنّا حاملوكَ على وَلَدِ ناقةٍ» فقال: يا رسول الله، ما أصنعُ بوَلَدِ ناقة؟ فقالَ الرسولُ ﷺ: «وهَلْ تَلِدُ الإبلَ إلاّ النّوقُ؟»[١].

وأخرج الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً، وكان يهدي النبي ﷺ الهدية من البادية، فيجهزه النبي ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ زاهراً بادِيتُنا ونحنُ حاضروه»، وكان رسول الله ﷺ يحبه، وكان رجلاً دميماً، فأتاه رسول الله ﷺ، وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه، ولا يبصره الرجل، فقال: أرسِلْني! مَنْ هذا؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه وجعل رسول الله ﷺ يقولُ: «مَنْ يَشتَري العَبْدَ؟» فقال: يا رسولَ الله! إذن واللَّهِ تَجِدُني كاسِداً، فقال: رسولُ اللَّهِ ﷺ: «لكنْ عندَ اللَّهِ لَسْتَ بِكاسِدٍ»، أو قال: «لكنْ عندَ اللَّهِ أنتَ غالٍ».

وأتت عجوز النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، أُدْعُ اللَّهَ أن يُدخلَني الجنّة. فقال مداعباً: «يا أمَّ فُلان، إنَّ الجنّة لا تدخُلُها عَجوزٌ»، فولّت العجوزُ تبكي، فقال: «أخبروها أنّها لا تدخُلُها، وهي عجوز؛ إنّ الله تعالى يقول: «إنّا أنشأناهُنّ إنشاءً فجعلناهُنّ أبْكاراً»[٢].

ومن الأحاديث الدالة على نفسية الرسول المرحة المحبة للمداعبة والمزاح ما أخرجه الإمام أحمد عن عائشة (رضي الله عنها) قالت:

«خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبدُن، فقال للناس: «تقدَّموا»، فتقدّموا، ثم قال لي: «تَعالَيْ حتى أسابِقَكِ»، فسابقتُه فسبقتُه، فسكت عنّي حتى إذا حملتُ اللحم، وبَدُنتُ،

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٢) رواه الترمذي. وهو حسن بشواهده.

ونسيتُ، خرجتُ معه في بعض أسفاره، فقال للنّاس: «تَقَدَّمُوا»، فتقدَّموا، ثم قال لي: «تعالَيْ حتّى أُسابِقَكِ»، فسابقتُه فسبَقني، فجَعَلَ يَضْحَكُ ويقول: «هذه بتِلك».

ولذلك لم يكن الصحابة الكرام يرون حرجاً في المزاح والمداعبة، فلقد رأوا الرسول الكريم، وهو إمامهم وقائدهم ومعلمهم، يمزح أحياناً، ويمرح أحياناً أخرى، فكانت لهم مواقف من المزاح والمرح طريفة، تدلّ على سماحة المجتمع الإسلامي الأول وبعده عن التزمت والتجهُّم والانقباض.

أخرج البخاري في الأدب عن بكر بن عبد الله قال: «كان أصحاب النبي ﷺ يتبادحون بالبِطّيخ[1]، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال».

إنه المزاح الإسلامي المقتصد المعتدل الذي لا يُخرج أصحابَه عن جادة الحق، ولا يطفىء فيهم شعلة الرجولة، وإنما يؤدي غرضه في تنشيط النفوس، وجلاء الأذهان، وترويح القلوب.

ومن طرائف ما روي من مزاح الصحابة الكرام الذي ضحك له رسول الله ﷺ ما أخرجه الإمام أحمد عن أم سلمة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه خرج تاجراً إلى بُصْرَى، ومعه نُعيمان وسُوَيْبِط بن حَرْمَلَة رضي الله عنهما، وكلاهما بَدْرِيّ[2]، وكان سُوَيْبِط على الزاد، فقال له نعمان: أطعمني! قال: حتى يجيء أبو بكر، وكان نعيمان مِضْحاكاً مَزّاحاً، فذهب إلى ناس جلبوا ظهراً فقال: ابتاعوا مني غلاماً عربياً فارهاً؟ قالوا: نعم، قال: إنه ذو لسان، ولعله يقول: أنا حر، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوني لا تفسدوه عليّ! فقالوا: بل نبتاعه، فابتاعوه منه بعشر قلائص، فأقبل بها

(١) أي يترامون.
(٢) أي شهد بَدْراً.

يسوقها، وقال: دونكم هو هذا! فقال سُوَيْبِط: هو كاذب، أنا رجل حر! قالوا: قد أخبرَنا خبرَك، فطرحوا الحبل في رقبته، فذهبوا به فجاء أبو بكر فأُخْبِر، فذهب هو وأصحابه إليهم، فردّوا القلائص وأخذوه، ثم أخبروا النبي ﷺ بذلك فضحك هو وأصحابه منها حَوْلاً.

وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فدخل المسجد وأناخ ناقته بفنائه، فقال بعض أصحاب النبي ﷺ لنعيمان بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه، وكان يقال له: النعيمان: لو نحرتها فأكلناها، فإنا قد قَرِمْنا إلى اللحم[1]، ويغرم رسول الله ﷺ ثمنَها، فنحرها النعيمان، ثم خرج الأعرابي فرأى راحلته فصاح: واعَقْراه يا محمد! فخرج النبي ﷺ فقال: مَنْ فعل هذا؟ قالوا: النعيمان، فأتْبَعَه يسألُ عنه، فوجده في دار ضُباعة بنت الزبير بن عبد المطلب رضي الله عنه قد اختفى في خندق وجعل عليه الجريد والسَّعَف، فأشار إليه رجل ورفع صوته يقول: ما رأيتُه يا رسول الله، وأشار بإصْبَعِه حيث هو، فأخرجه رسول الله ﷺ، وقد تغيّر وجهه بالسَّعَف الذي سقط عليه، فقال له: ما حَمَلَكَ على ما صنعتَ؟ قال: الذين دلّوك عليّ يا رسول الله هم الذين أمروني، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عن وجهه ويضحك، ثم غرمها رسول الله ﷺ[2].

وبعد، فليس بعد هذه الآثار وأمثالها دليل أنصع على ما يريده الإسلام لأبنائه من خفّة ظلّ، ومرح نفس، وعذوبة روح، وإنها لصفات تكسب صاحبها شخصية دمثة محببة، تستطيع أن تغزو القلوب، وتتغلغل في بواطن النفوس، والمسلم الداعية في أشد الحاجة إلى مثل هذه الشخصية وتلك الصفات.

---

(١) أي اشتهينا.

(٢) انظر حياة الصحابة ٣/١٥٤، ١٥٥.

حَـلِـيـمٌ :

والمسلم التقي الذي ارتوت نفسه من هَدْي الإسـلام يروض نفسـه دوماً على الحلم وكظم الغيظ، متمثلاً قول الله تبارك وتعالى:

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[١].

ذلك أن الشديد في نظر الإسلام ليس بالرجل ذي العضلات المفتولـة، القادر على صرع الناس والتغلب عليهم، بل الشديد هو الرجل المتّزن الحليم الذين يملك نفسه عند الغضب:

«لَيْسَ الشَّـدِيدُ بـالصُّـرَعَـةِ[٢]، إنّمـا الشَّـديـدُ الـذي يَمْلِكُ نفسَـه عنـدَ الغَضَبِ»[٣].

إن ضبط النفس عنـد الغضب مقياس رجـولة الـرجال، وليس انـدفاعهم وراء لوثة الغضب الهوجاء، واستسلامهم لنزق الانفعال الطائر؛ فبضبط الرجل نفسَـه، وتحكُّمِه في أعصـابه حين الثـورة والانفعال، يسيـطر على المـواقف، ويدرأ الفتن والخصومات، ويحسن الوصـول إلى الهدف، ويحـظى برضـا الله والناس. ومن هنا كانت توصية الرسـول الكريم للرجـل الذي يستـوصيه كلمـة واحدة: «لا تغضَبْ»، وردّد الرجل مراراً قوله: أَوْصِني، وكان جواب الـرسول الكريم هذه الكلمة الجامعة لمكارم الأخلاق: «لا تغضَبْ»[٤].

وعن ابن عبـاس رضي الله عنـه قـال: قـال رسـول الله ﷺ لأشـج عبد القيس:

«إنَّ فيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهما اللَّهُ: الحِلْمُ والأَناةُ»[٥].

---

(١) آل عمران: ١٣٤. وانظر فضل بيان في هذه المسألة ص ١٤٢، ١٤٣.

(٢) أي الذي يصرع الناس ويغلبهم.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه البخاري.

(٥) رواه مسلم.

إن المسلم الحق ليغضب أحياناً، ولكنه لا يغضب إذا غضبَ لِنفسه، وإنما يغضب لله، حين تُنتَهك حرمةٌ من حرماته، أو يُعتَدى على شعيرة من شعائر دينه، أو يُعَطَّل حكمٌ من أحكامه، هنالك ينتفض المسلم ثورة عارمة على المعتدين الآثمين المنتهكين حرمات الله، العابثين بشرعه وأحكامه وقِيَمِه، وهذا ما كان عليه رسول الله ﷺ فيما يرويه البخاري ومسلم.

«ما انتَقمَ رسولُ الله ﷺ لِنَفْسِهِ، إلاّ أنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ بِها».

لقد كان صلوات الله عليه يغضب، ويتلوّن وجهه الشريف حين يجد إساءة لسمعة الدين، أو خطأً في تطبيق أحكامه، أو تساهلاً في إقامة حدوده.

غضب يوم جاءه رجل فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا، فلم يُرَ النبي الكريم غضب في موعظة قطُّ أشدَّ مما غضب يومئذ، فقال:

يا أيُّها الناسُ، إنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرينَ، فأيُّكُمْ أمَّ النّاسَ فَلْيُوجِزْ، فإنَّ مِنْ ورائِهِ الكَبيرَ والصَّغيرَ وذا الحاجةِ»(١).

وغضب يوم قَدِمَ من سفره على عائشة فرأى في بيتها ستراً رقيقاً فيه تماثيل، فلما رآه هتكه وتلوّن وجهُه، وقال: «يا عائِشَةُ، أَشَدُّ النّاس عَذاباً عندَ الله يومَ القِيَامَةِ الذينَ يُضاهونَ بِخَلْقِ الله»(٢).

وغضب يومَ كلّمه أسامة بن زيد في شأن المرأة المخزومية التي سرقت، وعزَم رسول الله على أن يقيم عليها الحدّ، فقالوا: مَن يُكلِّم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: مَن يَجتَرىء عليه إلا أسامةُ بن زيد، حِبُّ

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

رسول الله ﷺ؟ فكلَّمه أسامة فقال رسول الله ﷺ مُغْضَباً: «أَتَشفَعُ في حدٍّ مِنْ حُدود الله تَعالى»؟. ثم قام فَاخْتَطَبَ، ثم قال: «إنّما أَهلَكَ مَنْ قَبْلَكمْ أنّهم كانوا إذا سَرَق فيهمُ الشَّريفُ تَركوهُ، وإذا سرَقَ فيهمُ الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ! وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنّ فَاطمةَ بنتَ محمدٍ سَرَقَتْ لَقطعتُ يَدَها»[١].

هكذا كان الغضب عند رسول الله ﷺ، وهذه هي مسوِّغاته في شِرْعَةِ الإسلامِ، أن يكون لله، لا للنفس.

يَجْتَنِبُ السِّبابَ والفُحْشَ:

وإذا ما أخذ المسلم نفسَه بهذا الخلق عند الغضب فَبَدَهيٌّ ألا يجري على لسانه سباب أو هُجْر من القول أو فُحش، ويعزّز هذا الخلق في نفسية المسلم، وينزّه لسانه عن السباب والفحش التزامه الصادق بتوجيهات الإسلام الخلقية التي نفّرت من السباب والفحش والطعن واللعن تنفيراً جعل حسّ المسلم لا يطيق سماع مثل تلك العبارات:

فعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سِبابُ المُسْلِمِ فُسوقٌ، وقتالُه كُفْرٌ»[٢].

وقال: «إنَّ الله لا يُحِبُّ كُلَّ فاحِشٍ مُتَفحِّشٍ»[٣].

وقال: «إنَّ الله تعالى يُبغِضُ الفاحِشَ البَذيء»[٤].

وقال: «ليسَ المُؤْمِنُ بالطَّعّانِ ولا اللَّعّانِ ولا الفاحِشِ ولا البَذيءِ»[٥].

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات.

(٤) رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

إنها صفات لا تليق بالمسلم الذي استروح نسمات الإيمان الندية، وخالطت نفسَه بشاشةُ الإسلام السمحة، ومن هنا هو عنها بعيدٌ جدُّ بعيد، وإنه ليزداد عنها بعداً كلما تبدّت له الأسوة الحسنة مجسَّدة في رسول الله ﷺ الذي لم تندَّ عنه كلمة واحدة في حياته تخدش سمع السامع، أو تجرح شعوره أو تمسّ كرامته.

يقول أنس رضي الله عنه: «لَمْ يَكُنْ رسولُ الله ﷺ فاحِشاً، ولا لَعّاناً، ولا سَبّاباً، كان يقولُ عندَ المَعْتَبَة: ما لَهُ؟ تَرِبَ جَبِينُهُ[1]»[2].

بل إنه نزه لسانه حتى عن لَعْنه الكافرين الذين أوصدوا قلوبهم عن دعوته، فلم ينلهم بكلمة نابية جارحة، كما حدّث بذلك الصحابي الجليل أبو هريرة، فقال: قيل: يا رسول الله، ادع على المُشركين، قالَ: «إني لَمْ أُبعَثْ لَعّاناً، ولكنْ بُعِثْتُ رَحْمَةً»[3].

ويذكر أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلاً شرب الخمر، فأُتِيَ به إلى النبي ﷺ، فقال للناس: «اضرِبوهُ، فمِنّا الضاربُ بيده، والضاربُ بِنَعْلِهِ، والضاربُ بثوبه. فلمّا انصرف قال بعض القوم: أخزاكَ الله، قال: «لا تقولوا هذا، لا تُعينوا عليه الشَّيطان»[4]. فيا لَلنَّظْرَةِ الإنسانية الرحيمة الحانية على الإنسان، ولو كان من المتخبطين في متاهات الشرود والضلال والعصيان!

ويبلغ رسول الله ﷺ الذروة في اجتثاث شَأْفَة الشرّ والحقد والعدوان من النفوس حين يصور للمسلمين المصير الأسود الخاسر لمَن أطلق لسانه في أعراض الناس، فإذا بتلك الشتائم الجوفاء والقذف الأرعن والاعتداءات

---

(١) أي من كثرة السجود.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري.

البشعة الرخيصة التي بدرت منه ذات يوم، تأتي على كل ما جناه في حياته من حسنات، وتردّه مفلساً خاليَ الوِفاض من كل عاصم يعصمه من النّار يوم الحساب الرهيب.

يقول رسول الله ﷺ: «أَتَدْرونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المفلِسُ فينا مَن لا درهَمَ لَهُ ولا مَتاعَ، فقال: إنّ المُفْلِسَ مِنْ أمّتي مَنْ يأتي يومَ القِيامَة بصلاةٍ وصيامٍ وزَكاةٍ، يأتي وقد شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا. فيُعْطَى هذا مِنْ حَسَناتِهِ، وهذا مِنْ حَسَناتِه، فإن فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قبلَ أن يَقْضِيَ ما عليهِ أُخِذَ مِنْ خَطاياهمْ فَطُرِحَتْ عليه، ثمّ طُرِحَ في النّار»[1].

فلا بدع أن تنتفي من حياة المسلمين الصادقين هذه التفاهات الفارغة، وتندر المشاحنات والخصومات المُفضِية إلى السِّباب والشتائم في المجتمع الإسلامي الحق الذي تسود فيه هذه القيم، وتعم تلك التوجيهات الخلقية العالية حياة الناس.

إن الفرد في المجتمع المسلم الحق ليحسّ في أعماقه أنه محاسب على كل كلمة يتفوه بها، إذا جرّته غمرات الحياة إلى شيء من تلك الخصومات. إنه ليضبط انفعاله، ويتحكّم في أعصابه وتعبيراته، ذاكراً قول الرسول ﷺ:

«المُتسابّانِ ما قالا، فعلى البَادي منهما[2] حتى يَعتَدِيَ المَظْلومُ[3]»[4].

ومن هنا هو يمسك لسانه عن السِّباب، ولو وُجِدَت دواعيه، ويكفّ من

---

(١) رواه مسلم.
(٢) أي الإثم يقع على البادي.
(٣) أي يتجاوز حدّ الانتصار.
(٤) رواه مسلم.

غَرْبِ غَضَبِه المشتعلِ كيلا يقع في الإثم، ويحاذر أن يكون من المعتدين.

وإن هـذا الخلق في حسّ المسلم وواقع حيـاته لينسحب على الأمـوات أيضاً، فلا ينطلق لسانه بسبّهم كما يفعل الجهَلةُ السُّفهاء الـرُّعْن الذين لا تقف ألسنتهم عند الأحياء، بل تتعداهم إلى الأموات، عملاً بقول الرسول الكريم:

«لا تَسُبُّوا الأَمْواتَ، فإنَّهمْ قَدْ أَفضَوْا إلى ما قَدَّموا»[1].

لا يَرْمي أَحَداً بِفِسْقٍ أَوْ كُفْرٍ بِغَيْرِ حَقٍّ:

والمسلم الذي يصون لسانه عن السبـاب والشتائم والفحش يـربأ بنفسـه أن يقع فيما هو أدهى من ذلك وأمرّ، وهو تفسيق النـاس وتكفيرهم بغيـر حق؛ فقد توعّد الرسول ﷺ مَنْ يرمي الأبرياء بذلك أن تـرتدّ الـرمية عليهم، فيبـوءوا بإثمها الكبير:

«لا يَـرْمي رجلٌ رَجُـلاً بـالفِسْقِ أو الكُفْـرِ إلَّا ارْتَـدَّتْ عليـهِ، إنْ لمْ يكُنْ صاحبُه كذلِكَ»[2].

حَـيِـيٌّ سِتِّـيرٌ:

ومن خـلائق المسلم الحق أنه حَيِـيّ ستِّـير، لا يحب أن تشيع الفـاحشة في المجتمع الإسلامي، عملاً بتوجيهات القرآن الكريم والسنة المطهرة، التي جاءت تتوعّـد أولئك المفسـدين الذين يحلو لهم أن يَلِغـوا في أعراض النـاس ويتحدثوا عن عوراتهم بأشدّ العذاب في الدنيا والآخرة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[3].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) النور: ١٩.

ومن هنا كان الذي يطلق لسانه في نشر أخبار الفاحشة في المجتمع آثماً كفاعلها سواء؛ فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «القائلُ الفاحِشَةَ والذي يشيعُ بها في الإثم سَواءٌ»(١).

إن الفرد في المجتمع الإسلامي سِتِّير حَيِيّ مترفّع عن الصغائر والدنايا، له من خلقه الرّصين الذي ربّاه عليه الإسلام ما يصرفه عن الخوض في أعراض الناس، ويصون لسانه عن المجاهرة بالمعصية، سواءٌ أكانت منه أم سمعَها أو رآها من غيره، عملاً بقول الرسول ﷺ:

«كُلُّ أمّتي مُعافًى إلاّ المُجاهِرينَ، وإنَّ مِنَ المُجاهَرَةِ أنْ يَعْمَلَ الرّجلُ باللّيلِ عَمَلاً، ثُمَّ يُصْبِحَ وقَدْ سَتَرَهُ اللّهُ عليه، فَيقولُ: يا فُلانُ، عَمِلْتُ البارِحَةَ كَذا وكَذا، وقد باتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، ويُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللّهِ»(٢).

وقوله:

«لا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْداً في الدُّنيا إلاّ سَتَرَهُ اللّهُ يومَ القِيَامَةِ»(٣).

وجاء قوم إلى عقبة بن عامر فقالوا: إن لنا جيراناً يشربون ويفعلون، أفنرفعهم إلى الإمام؟ قال: لا، سمعت رسولَ الله ﷺ يقول:

«مَنْ رَأَى مِنْ مُسْلِمٍ عَوْرَةً فَستَرَها، كانَ كَمَنْ أَحْيَا مَوْءُودَةً مِنْ قَبرِها»(٤).

إن معالجة الضعف البشري لا يكون بالتنقيب عن عورات الناس وعيوبهم، وفضحهم، والتشهير بهم، وإنما يكون بحسن عرض الحق على أسماعهم، وتزيين الطاعة لهم، وتكريه المعصية إليهم، دونما تصريح

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

أو مواجهة أو مجابهة، فباللّين والرفق وحسن التأتّي تنفتح مَغاليق القلوب، وتخشع الجوارح، وتلين النفوس. ومن هنا نهى الإسلام عن التجسّس وتتبّع عورات المسلمين. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ . . .﴾[١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه أُتِيَ برَجُلٍ فقيلَ له: هذا فلان تقطُرُ لحيتُه خمراً، فقال: إنّا قَد نُهِينا عَنِ التجسُّسِ، ولكنْ إنْ يظهَرْ لنا شيءٌ نأخذْ بِهِ»[٢].

ذلك أن تَتَبُّعَ عورات المسلمين، والتجسُّسَ عليهم، والتَّنْقِيبَ عن لحظات ضعفهم وتقصيرهم، والتشهيرَ بهم، يؤذي المسلمين المشهَّر بهم، ويؤذي بالتالي المجتمع الكبير الذي يعيشون فيه، فما شاعت الفاحشةُ في مجتمع، وكَثُرَتْ في أعضائه الأقاويل، إلا دبّ فيه الانحلال، وهانت المعصية، وانتشرت البغضاء، وسرى الكيد، واستكنّت الضغينة، وعمّ الفساد. وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك كله بقوله:

«إنّكَ إن اتّبعتَ عَوْراتِ المُسْلِمينَ أَفْسَدْتَهُمْ، أو كِدْتَ أن تُفْسِدَهُمْ»[٣].

ومن هنا اشتدّ رسول الله ﷺ في تنبيه المسلمين إلى خطورة الولوغ في أعراض الناس، والتنقيب عن عوراتهم، مُهدِّداً مَنْ يَستَهين بذلك بهَتْك الستر عنه، وفضحه في جوف بيته، فقال:

«لا تُؤْذوا عِبَادَ الله، ولا تُعَيِّروهُمْ، ولا تَطْلُبُوا عَوْراتِهم، فإنَّه مَنْ تَطَلَّبَ عَوْرَةَ أخيهِ المُسْلِمِ طَلَبَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ حتّى يَفضَحَهُ في بَيْتِهِ»[٤].

وفي رواية عن ابن عباس تصور انفعال رسول الله ﷺ وشدّته على هؤلاء الوالغين في الأعراض يقول فيها:

---

(١) الحجرات: ١٢.

(٢) رواه أبو داود بإسناد على شرط البخاري ومسلم.

(٣) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

(٤) رواه أحمد بإسناد حسن.

«خطب رسول الله ﷺ خطبة حتى أسمع العواتق في خدورهنّ فقال: يا معْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلسانِهِ، ولَمْ يَدخُلِ الإيمانُ قَلبَهُ، لا تُؤْذوا المُؤْمِنين، ولا تَتَّبِعوا عَوْراتِهِم، فإنّه مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أخيهِ المُسْلِمِ هَتَكَ اللَّهُ سِتْرَهُ، ومَنْ يَتَتَبَّعْ عَوْرَتَهُ يَفضَحْهُ، ولَو في جوفِ بَيْتِهِ»[1].

لقد بلغ من شدّة رسول الله ﷺ على هؤلاء المتساهلين في النيل من أعراض الناس أن خاطبهم بقوله:

«يا معشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسانِهِ، ولَمْ يَدخُلِ الإيمانُ قَلْبَهُ».

فما أعظمَه من إثم اقترفه هؤلاء حتى كانوا في زمرة الذين خوت قلوبهم من نعمة الإيمان! إنه لإثم كبير، يحسبونه هيّناً، وهو عند الله عظيم.

لا يَتَدَخَّلُ فيما لا يَعْنِيهِ:

إن المسلم الحَصيف الحريص على حسن إسلامه، المتطلّع إلى مرضاة ربه، لا يتدخل فيما لا يَعْنيه، ولا يدسّ أنفه في شؤون الناس الخاصة، ولا يخوض في مهاترات حول ما يُقال عنهم وما يُشاع؛ وإنه إذ يَجتَنِب ذلك، ليَعْتَقِد أنه يستمسك بخلق الإسلام الرّصين الذي رفع الإنسان عن هذه التفاهات الفارغة، واللّغَط الأهوج، والثرثرة الرخيصة:

«مِنْ حُسْنِ إسْلامِ المَرْءِ تَركُهُ ما لا يَعْنِيه»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ اللَّهَ تَعالى يَرْضَى لكُمْ ثَلاثاً ويَكْرَهُ لكُمْ ثَلاثاً. يَرْضَى لكُمْ: أن تَعْبُدوهُ، ولا تُشْرِكوا بِهِ شَيْئاً، وأنْ تَعْتَصِموا بحَبْلِ اللَّهِ جَميعاً ولا تَفَرَّقُوا. ويَكْرَهُ

---

(١) رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه. وهو صحيح بشواهده.

لكُمْ: قِيلَ وقالَ، وكَثْرَةَ السُّؤالِ، وإضاعَةَ المالِ»[١].

إن المجتمع الربّاني الذي ينشئه الإسلام، لا مجال فيه لقيلَ وقالَ، وكَثرةِ السؤال، والتدخّل في شؤون الناس الخاصة؛ لأن أفراده مشغولون بما هو أجلّ وأكبر، إنهم مشغولون بتحقيق كلمة الله في الأرض، ورفع راياته فوق الربوع، ونشر قِيَمِهِ بين الناس، والذين ينهضون بهذه الأعمال الجسام، لا يجدون وقتاً للخوض في تلك الآثام.

بَعيدٌ عَنِ الغِيبَةِ والنَّمِيمَةِ:

ومن هنا كان المسلم بعيداً عن الغيبة والنميمة؛ لأنه، بحكم تنشئته وتكوينه على قِيَم الإسلام وأخلاقه، منصرفٌ عن هذه التفاهات إلى الأمور الجُلّى في الحياة، مُصغٍ دوماً إلى الهَدْي العالي من كتاب الله وسنة رسوله، يأخذ بما يأمر به هذا الهَدْي، ويدع ما نَهى عنه.

إنّه لَيقرأُ قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[٢]، فتمتلئُ نفسُه نفوراً من الغِيبة وكراهية؛ إذا يرى صورة المغتاب يأكل لحم أخيه مَيْتاً، فإذا هو يسارع إلى التوبة التي ذيّل الله بها الآية، حَضّاً لِمَنْ وقع في الغِيبة على المسارعة إلى التوبة منها.

ويصغي إلى الهَدْي النبوي الكريم يجيب على سؤال سائل: أيُّ المسلمينَ أفضلُ يا رسول الله؟ فيكون الجواب:

«مَنْ سَلِمَ المُسْلِمونَ مِنْ لِسَانِهِ ويَدِهِ»[٣].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الحجرات: ١٢.

(٣) رواه مسلم.

وإزاء هذا الهَدْي العالي والتوجيه الحكيم لا يتورط المسلم التقي بغيبة، ولا تمتد يدُه إلى أحد في مجتمعه بأذى. بل إنه ليذهب إلى أبعد من ذلك، فيطارد الغِيبة أنَّى وَجَدَها، فيذبّ عن أخيه المسلم في غَيْبتِه، إن تناولته ألسنة البغي، ويدفع عنه قالةَ السوء، عملاً بقول الرسول الكريم:

«مَنْ ذَبَّ عَنْ عِرْضِ أخيهِ بالغَيْبَةِ كانَ حَقّاً على الله أنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النّارِ»[١].

والمسلم التقي لا يمشي بالنميمة في مجتمعه؛ لأنه يدرك، بما فَقِهَ من هَدْي دينه، أنّ النميمة تجعل صاحبها في زمرة الأشرار الذين لا همَّ لهم إلاّ الإفسادُ بين الناس، وتقطيعُ عرى المحبة بين الأخلاّء، فعن أسماء بنت يزيد أن رسول الله ﷺ قال:

«ألا أُخْبِرُكُمْ بخِيارِكُمْ؟ قالوا: بَلى يا رسولَ الله. قالَ: الّذينَ إذا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ عزّ وجلّ. ثم قالَ: ألا أُخْبِرُكُمْ بِشِرارِكُمْ: المَشّاؤُونَ بالنَّميمة، المُفْسِدونَ بينَ الأَحِبَّةِ، الباغونَ لِلْبُرَآءِ العَيْبَ»[٢].

وحَسْبُ النّمام المفسد خزياً في الدنيا، وسوءَ عاقبة في الآخرة، هذا الحديثُ القاطع الذي يسدّ عليه كل باب من أبواب الأمل والرجاء، إن ظلَّ مصرّاً على خطيئته:

«لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمّام»[٣].

ومما يملأ النفسَ هَلَعاً ورعباً من عواقب النميمة أن عذاب الله الشديد ينصبّ على النمّام المفسد منذ أن يُوَسَّد في قبره، وذلك فيما رواه الشيخان

---

(١) رواه أحمد بإسناد حسن.

(٢) رواه أحمد بإسناد حسن.

(٣) متفق عليه.

وغيرهما عن ابن عباس، قال: «مَرَّ رسول الله ﷺ على قَبْرَينِ، فقال: أما إنّهما لَيُعَذَّبَانِ، وما يُعذَّبانِ في كَبيرٍ. أمّا أَحَدُهُما فكانَ يَمْشي بالنميمة، وأمّا الآخر فكان لا يَسْتَبْرِئُ مِنْ بَوْلِهِ. قال: فدَعا بِعَسيبٍ رَطْبٍ[1]، فشقّه اثنين، ثم غرَس على هذا واحداً، وعلى هذا واحداً، ثم قال: لعلّهُ أن يُخَفَّفَ عنهُما ما لمْ يَيْبَسا».

يَجْتَنِبُ قَوْلَ الزُّورِ:

ومن صفات الملسم الحق الواعي أنه لا يدلي بقول زور؛ لأن قول الزور حرام:

﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾[2].

وشهادة الزور، إلى جانب حرمتها، تُزري، بالرجولة، وتَقْدَح في الأمانة، وتُخِلّ بالشرف. ومن هنا لا يمكن أن تكون من صفات المؤمنين، ولهذا نفى الله عن عباده المصطفَيْنَ الأخيار هذه الصفة، فيما نفى عنهم من كبائر، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾[3].

ومما يدلنا على فداحة هذه المعصية أن رسول الله ﷺ ساقها بعد أكبر كبيرتين في سلّم المعاصي: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، ثمّ كرّرها على مسامع المسلمين محذِّراً منذراً، وهو في أشد حالات الانفعال، إذ قال:

«ألا أُنَبِّئُكُمْ بأكبَرِ الكَبَائِرِ؟ قُلْنا: بَلَى يا رسولَ الله، قالَ: الإشْراكُ بالله،

---

(١) أي غصن أخضر.

(٢) الحج: ٣٠.

(٣) الفرقان: ٧٢.

وعُقوقُ الوالِدَيْنِ وكانَ مُتَّكِئاً فجلَسَ، فقال: ألا وقَوْلُ الزُّورِ وشهادةُ الزُّورِ، فما زالَ يُكرِّرُها حتى قُلْنا لَيْتَهُ سَكَتَ»[1].

يَجْتَنِبُ ظَنَّ السَّوْءِ:

ومن خلائق المسلم الحق أنه لا يظن بالناس ظن السَّوْء، ولا يسمح لنفسه أن يطلق لها عنان الخيال والتصورات التي تصم الناس بالعيب، وتنسب إليهم التّهم، وهم منها بُرَآءُ، وذلك عملاً بقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[2].

ولقد اشتد الهَدْي النبوي الكريم في التحذير من الظن ورجم الناس بالغيب بعيداً عن الحقيقة واليقين، فقال النبي ﷺ.

«إيّاكُمْ والظَّنَّ، فَإنَّ الظَّنَّ أكْذَبُ الحَديثِ»[3].

لقد عدّ النبي ﷺ الظنّ أكذب الحديث، والمسلم الحق الصادق لا يجري على لسانه حديث فيه رائحة الكذب، فكيف يقع في أكذب الحديث!؟

والهَدْي النبوي العالي، إذ يحذر من الظنّ، ويعدّه أكذب الحديث، يوجه المسلمين إلى الأخذ بالظاهر من أعمال الناس، والبعد عن رميهم بالظنون والشكوك والأقاويل والأوهام، فليس من خلق المسلم ولا من شأنه أن يكشف عن سرائر الناس ويغوصَ في خصوصياتهم، ويخوضَ في أعراضهم، فالسرائر يعلم خَبيئَها، ويكشف عنها، ويحاسب عليها الإلٰه الذي يعلم السرَّ وأخفى. أما الإنسان فليس له من أخيه إلا الظاهر من عمله، وهذا ما كان عليه

---

(١) متفق عليه.

(٢) الحجرات: ١٢.

(٣) متفق عليه.

السلف الصالح من الصحابة والتابعين الذين استروحوا نسمات هذاالهَدْي نقيّة صافية من كل شائبة وكدر.

أخرج عبد الرزاق عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، قال: «سمعتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إنَّ ناساً كانوا يأخذون بالوَحْي في عهد رسول الله ﷺ، وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم، فمَنْ أظهرَ لنا خيراً آمنّاه وقرّبناه، وليسَ إلينا من سَريرَته شيءٌ، اللَّهُ يُحاسِبُهُ على سَرِيرتِهِ، ومن أظهر لنا شراً لم نأمَنْهُ ولم نصدِّقْهُ، وإن قال: إنّ سريرتَه حسنَةٌ»(١).

ومن هنا كان المسلم التقي الواعي متحرّزاً في كل كلمة يتفوه بها، متثبتاً من كل حكم يطلقه، لا يغيب عن حسّه وفكره قولُ الله تبارك وتعالى يهتف به:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾(٢).

فإذا هو وقّاف عند هذا النهي الحكيم، لا يتكلم إلا بعلم، ولا يحكم إلا بيقين.

وإنه ليزداد رهبة وخشية من الوقوع في إثم الخوض في الأعراض والرجم بالظنون، إذ يتمثل لعين قلبه ذلك الملَك الرقيبُ العتيدُ الموكَّلُ به، الذي يحصي عليه كل كلمة تندّ عن لسانه، وكل قول يصدر عنه:

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٣).

---

(١) حياة الصحابة ٢/١٥١.

(٢) الإسراء: ٣٦.

(٣) ق: ١٨.

إن المسلم المستشعرَ معاني هذه النصوص ليهتَزّ فرَقاً من مسؤولية الكلمة التي تطير عنه؛ ولذلك تراه متحفّظاً دوماً فيما يصدر عنه من قول، يزن أقواله، ويقلّبها على وجوهها قبل التفوّه بها؛ لأنه يعلم بما لَقِن من هَدْي دينه أن هذه الكلمة التي يطلقها قد ترفعه إلى مقام الرضوان من ربه، وقد تهوي به إلى دَرْك سَخَطِه عليه وغضبه منه، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ:

«إنَّ الرّجلَ لَيتكلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوانِ اللَّهِ، ما كان يظُنُّ أنْ تبلغَ ما بَلَغتْ، يكتُبُ الله له بها رِضْوانَه إلى يَوْمِ يَلْقاهُ، وإنَّ الرجلَ لَيتكلَّمُ بالكلِمةِ مِنْ سَخَطِ الله، ما كانَ يظنُّ أنْ تبلغَ ما بلغَتْ، يكتُبُ اللَّهُ لهُ بها سَخَطَهُ إلى يَوْمِ القيامَةِ»[1].

فما أعْظمَ مسؤوليةَ الكلمة! وما أكبرَ الآثار المترتبةَ على ما تقذف به الألسنة الثرثارة من أقاويل!

إن المسلم التقي الناصع السّريرة لا يستمع إلى هَذَر الناس، ولا يلقي بالاً إلى ما يصدم سمعه من أقاويل وإشاعات وظنون. تموج بها مجتمعاتنا اليوم موجاً. وبالتالي لا يرضى لنفسه أبداً أن يروي كل ما يسمع عن الناس من هذه الأقاويل والإشاعات والظنون، من غير تثبّت وتيقّن، بل إنه لَيعدّ نقل كلّ ما يسمع وروايته لغيره قبل التثبت من صحته من الكذب المحرَّم الذي نصَّ عليه الرسول ﷺ بقوله:

«كَفَى بالمَرءِ كَذِباً أنْ يُحَدِّثَ بكُلِّ ما سَمِعَ»[2].

حافِظٌ لِلسِّرِّ:

ومن صفات المسلم الحق أنه حافظ للسرّ، لا يفشي سرّاً ائتمنه عليه أحد. وحفظ السرّ دليل رجولة المرء، وقوة شخصيته، ومتانة خلقه، وهذا

---

(١) رواه مالك في الموطّأ.

(٢) رواه مسلم.

ما كان عليه صفوة رجال الإسلام ونسائه، ممّن ارتشفوا رحيق هَدْي النبوة، وتمثلته نفوسهم، فكان خلقاً بارزاً من أخلاقهم، وعادة حميدة من أجمل عاداتهم.

وموقف أبي بكر وعثمان من عمر حين عرض عليهما الزواج من ابنته حفصة بعد أن تأيّمَتْ[1]، وكتمانهما سرّ رسول الله ﷺ عليه، من أنصع الشواهد على تحلّي الصحابة الأولين بفضيلة حفظ السر، وإصرارهم على التمسك بهذه الفضيلة.

يروي الإمام البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه حين تأيّمت بنتُه حفصة قال: «لقيت عثمان بن عفان رضي الله عنه فعرضتُ عليه حَفْصَةَ، فقلتُ: إن شئتَ أنكَحْتُكَ حفصَةَ بنتَ عمر. قال: سأنظر في أمري. فلبثتُ ليالِيَ، ثم لقِيَني، فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا، فلقيت أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه فقلتُ: إن شئتَ أنكَحتُكَ حفصةَ بنتَ عمر، فصمَتَ أبو بكر رضي الله عنه، فلم يَرجع إليَّ شيئاً، فكنتُ عليه أوجَدَ[2] منّي على عثمان. فلبثتُ ليالِيَ. ثم خطَبها النبي ﷺ، فأنكحتها إياه. فلقيني أبو بكر فقال: لعلّكَ وَجَدْتَ[3] عليَّ حين عرضتَ عليَّ حفصَةَ فلم أَرْجع إليك شيئاً؟ فقُلتُ: نعم، قَالَ فإنه لم يمنعني أن أَرجعَ إليك فيما عرضتَ عليَّ إلا أني كُنتُ علمتُ أن النبي ﷺ ذكَرَها، فلم أكن لِأُفشيَ سِرَّ رسول الله ﷺ، ولو تركها النبيُّ ﷺ لقبلتُها».

ولم تقتصر فضيلة حفظ السرّ على الرجال من السلف، بل شملت

---

(١) أي توفي عنها زوجها.

(٢) أي اشدّ غضباً.

(٣) أي غضبت.

النساء والأطفال الذي عَبُّوا من هَدْي الإسلام، واستنارت قلوبهم وعقولهم بنوره الّلألاء، ونجد ذلك فيما يرويه الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه، قال:

«أتى عليَّ رسولُ الله ﷺ، وأنا ألعبُ مع الغلمان، فسلَّم علينا، فبعثني إلى حاجة، فأبطأتُ على أمّي. فلما جئتُ قالت: ما حبَسَك؟ فقلتُ: بعثَني رسولُ الله ﷺ لحاجة، قالت: ما حاجتُه؟ قلتُ: إنَّها سِرّ. قالتْ: لا تُخْبِرَنَّ بسرّ رسول الله ﷺ أحداً. قالَ أنس: والله لو حَدَّثتُ بهِ أحداً لحَدّثتُكَ بهِ يا ثابت»[1].

لقد رأت أم أنس ابنها حريصاً على حفظ سرّ رسول الله ﷺ، فعزَّزَتْ فيه هذا الحِرْص، إذ طلبت منه ألا يخبر بسرّ رسول الله ﷺ أحداً، فلم يحدّث به أحداً حتى التابعيّ ثابتاً البُنانيَّ الذي روى عنه الحديث، ولم يدفعها حب الاطلاع إلى استدراج ابنها الصغير، لتعرف ذلك السرّ الذي طواه عنها، وهذه هي تربية الإسلام، وهذا هو المستوى الرفيع الذي رفعت إليه الإنسان، رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً.

إن إفشاء الأسرار لَمِن أسوأ العادات التي يُبْتَلَىٰ بها الإنسان؛ ذلك أن ليس كل ما يُعلم يقال في هذه الحياة، فهناك أمور تقضي الرجولة والمروءة والشرف والغيرة أن تبقى في طيّ الكتمان، وبخاصة إذا كانت هذه الأمور من متعلقات الحياة الزوجية. ولا ينشر مثل هذه الأمور على أسماع الناس إلا رجل في عقله لوثة من الجنون، أو في شخصيته ميوعة ودِياثة وتفاهة. ومن هنا كان هذا الضرب من الرجال الثرثارين في زمرة الأشرار، بل من شرّ الناس عند الله، كما بيّن رسول الله ﷺ في قوله:

---

(١) رواه مسلم، وروى البخاري بعضه مختصراً. وثابت: هو التابعي الذي روى الحديث عن أنس.

«إن مِنْ أَشرِّ النّاس[١] عندَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يومَ القِيامَةِ الرّجلَ يُفضي إلى المرأةِ، وتُفْضي إليْهِ، ثم يَنْشُرُ سِرَّها»[٢].

لا يناجي ثانياً وبينهما ثالث:

والمسلم التقي الواعي أحكام دينه مرهف الحسّ، دقيق الملاحظة، يحترم مشاعر الناس، ويتجنب الإساءة إليهم، ومن هنا لا تنقصه اللباقة في الحديث، ومن أوليات هذه اللباقة ألا يُناجيَ ثانياً وبينهما ثالث، وهذا من الأدب العالي الذي أدّب الإسلام به أبناءه، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا كُنْتُمْ ثَلاثَةً، فَلا يَتَنَاجَ اثنانِ دونَ الآخَر، حتّى تَخْتَلِطُوا بالنّاس، من أَجْلِ أنَّ ذلك يُحْزِنُهُ»[٣].

إن المسلم الذي أرهف الإسلام مشاعره، وربّى فيه الذوق العالي، وزوّده بالحصافة والكياسة واللباقة، بعيد عن الهمس والتناجي والوشوشة إذا كان في مجتمع لا يتجاوز ثلاثة أشخاص، حرصاً على مشاعر الثالث أن تخدش، ولكيلا يداخله شعور بالوحشة والضيق، إلا إذا كانت هناك حاجة ماسّة للحديث بين الاثنين، فلا بد عندئذ من استئذان الثالث، والإيجاز في الحديث، والاعتذار إليه.

ولقد كان الصحابة الكرام الذين تغلغل الإسلام في حنايا نفوسهم، وخالطت أخلاقه وتعاليمه دماءهم لا يغفلون أبداً عن هذه الأمور الحسّاسة في

---

(١) هكذا جاءت الرواية (أشرّ)، والنحاة يقولون: لا يجوز أشرّ وأخير، وإنما يقال: هو خير منه وشرّ منه، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بالوجهين.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

معـاملتهـم النـاسَ، تشهـد لـذلـك الآثـار الكثيـرة التـي تحكـي سلـوكَهـم الاجتماعي الراقي، ودقـةَ تقديـرهم للمشاعـر الإنسانيـة. ومنها مـا رواه الإمام مالك في الموطّأ عن عبد الله بن دينار، قال:

«كنتُ أنا وابنُ عُمَرَ عندَ دارِ خالِد بن عُقْبة التي في السُّوق، فجاءَ رجـلٌ يُريدُ أن يُناجيَه، وليسَ مع ابنِ عمرَ أحـدٌ غَيْري، فـدعا ابنُ عمـرَ رجلاً آخـرَ، حتّى كُنّا أربَعَةً، فقـال لي وللرّجلِ الثّـالِثِ الذي دَعـا: استَأْخِـرا شيئاً. فـإني سمعت رسولَ الله ﷺ يقولُ: لا يَتناجَ اثنانِ دونَ واحِدٍ».

لم يرضَ ابن عمر أن يستمـع إلى رجل جـاء يناجيـه من عرض الـطريق فجـأة، إذ وجد نفسـه أمام ثـالث قد يتـأذّى من إقصائـه عنهمـا، لم يـرضَ أن يستمــع إلى سـائله حتى استــدعى رابعــاً، وأفهم الجميــع أن هــذه سنــةُ رسول الله ﷺ، مردّداً على مسامعهم الحديث الشـريف، تأكيـداً للمسلمين أن هذا هو الموقف الذي ينبغي أن يقفوه في مثل هذه الحالة، حرصاً على مشاعر الناس، واتباعاً لسنة النبـي ﷺ.

لا يَـتَـكَـبَّـرُ:

والمسلم الحق لا يتكبَّـر، ولا يصعّـر خـدّه للنـاس، ولا يشمـخ عليهم، مستعلياً متجافياً منتفشاً؛ لأن هَدْي القرآن ملء سمعه وقلبـه وروحه، يهتف بـه أن المتكبّرين إذا طاب لهم التبختر والتعالي والانتفاش كالدِّيَكةِ في هذه الدنيـا الفانية، فإنهم قد خسروا الآخرة الباقية، التي حرّمها الله على المتكبرين:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]:

---

(١) القصص: ٨٣.

ويلقي في سمعه أيضاً أن الله لا يحب كل مختال فخور، يصعّر خدّه للناس[١]، ويمشي في الأرض مَرَحاً[٢]:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٣].

وينظر الباحث في نصوص السنة المطهرة، فيدهش لشدّة عنايتها باستئصال شأفة الكِبْر من النفوس، بنَهيها عنه وتنفيرها منه، وتَحذير المبتلين بدائه من أن يخسروا آخرتهم كلها بمثقال ذرّة من كِبْر، ينفثها الشيطان في روعهم، فيُحرَّم عليهم دخول الجنان، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ بقوله:

«لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، فقال رجلٌ: إنّ الرجل يحبُّ أن يكونَ ثَوْبُهُ حَسناً ونَعلُه حسنةً. قالَ: «إنّ الله جَميلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ[٤]. الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ[٥]، وغَمْطُ النّاسِ[٦]»[٧].

وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«أَلا أُخْبِرُكُم بأهلِ النّارِ: كُلُّ عُتُلٍّ[٨]، جَوّاظٍ[٩] مُسْتَكْبِرٍ»[١٠].

وحسبُ المتكبّرين خزياً ومهانة في الدار الآخرة أن الله تعالى لا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يكلمهم، ولا يزكّيهم، جزاءً وفاقاً لما كانوا يستكبرون

---

(١) أي يميل خدّه معرضاً عن الناس تكبّراً عليهم.
(٢) المرح: التبختر.
(٣) لقمان: ١٨.
(٤) أي ليس ذلك من الكِبْر.
(٥) بطر الحق: دفعُه.
(٦) أي احتقارهم.
(٧) رواه مسلم.
(٨) أي غليظ شديد.
(٩) أى مختال فى مشيته.

في الأرض، ويستعلون على الناس، وإنها لمهانة معنوية لا يقل وقعها المؤلم على النفوس الحسّاسة من وقع العذاب على الأجساد في الجحيم:

يقول رسول الله ﷺ: «لا يَنْظُرُ اللَّهُ يومَ القِيَامَةِ إلى مَنْ جَرَّ إزارَهُ بَطَراً»(١).

ويقول: «ثلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يومَ القِيَامَةِ، ولا يُزَكّيهِمْ، ولا يَنْظُرُ إلَيْهم، ولهمْ عَذابٌ أليمٌ: شَيْخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كَذّابٌ، وعائِلٌ(٢) مُستَكْبِر»(٣).

ذلك أن الكبرياء من صفات الألوهية، وليست من شأن البشر المخلوقين الضعفاء، وإن الذين يتكبّرون ويتجبّرون يعتدون على مقام الألوهية، وينازعون الخالق العظيم في صفة من صفاته العليا، ومن هنا استحقّوا عذابه الأليم الذي أخبر به الرسول ﷺ بقوله:

«قالَ اللَّهُ عزّ وجلّ: العِزُّ إزاري، والكِبْرياءُ رِدائي، فَمَنْ يُنازِعْني في واحِدٍ مِنْهُما فَقَدْ عَذَّبْتُه»(٤).

ومن أجل ذلك تتابعت نصوص السنة المطهَّرة محذرة المؤمنين من أن تلابسهم نزوة من كِبْر في لحظة من لحظات الضعف الإنساني، ولوّنَتْ لهم أساليب التحذير والتنبيه لكي يبقى المؤمنون الأتقياء في عصمة من الابتلاء بداء الكِبْر الوبيل.

ومن تلك النصوص المحذِّرة المنبِّهة قول الرسول ﷺ:

«مَنْ تَعظَّمَ في نَفْسِه، أو اختالَ في مِشْيَتِهِ، لَقِيَ اللَّهَ عزّ وجلّ، وهُوَ عليهِ غَضْبانُ»(٥).

---

(١) متفق عليه.
(٢) أي فقير.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه مسلم.
(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

مُتَـواضِـعٌ :

وتقابل هذه النصوصَ المحذِّرَةَ المنبِّهَةَ المتوعِّدةَ المتكبرين بأقسى أنواع الخزي والعذاب نصوصٌ تحبِّبُ في التواضع وترغِّب فيه، وتحضّ عليه، وتؤكد للمتواضعين أنهم كلما تواضعوا امتثالاً لأمر الله ازدادوا عند الله رفعةً وسمّواً، ومن هذه النصوص قولُ الرسول ﷺ :

«ما تَواضَعَ أحدٌ للَّهِ إلاّ رَفَعَهُ اللَّهُ»(١).

وقوله :

«إنَّ اللَّهَ أَوحَى إليَّ أَنْ تَواضَعوا حتّى لا يَفخَرَ أَحَدٌ على أحَدٍ، ولا يَبْغِيَ أَحَدٌ على أَحَد»(٢).

ولقد كانت سيرة الرسول ﷺ العملية مثالاً حيّاً فذّاً في التواضع، وخفض الجناح، ولين الجانب، وسماحة النفس، حتى إنه كان ليمرّ على الصبيان يلعبون، فلا تحجبه النبوّة والمنزلة العظمى التي خصّه الله بها من بين الناس جميعاً من أن يسلّم على أولئك الصبيان، ويهشّ لهم، ويتبسّط معهم.

فقد ذكر أنس رضي الله عنه أنه مرّ على الصبيان فسلّم عليهم، وقال: «كان النبي ﷺ يفعل ذلك»(٣).

ويروي أنس رضي الله عنه من تواضع النبي ﷺ أن الأَمَة من إماء المدينة كانت تأخذ بيد النبي ﷺ فتنطلق به حيث شاءت، يقضي لها حاجتها(٤).

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه البخاري.

ويقدُم تميم بن أُسَيْد إلى المدينة، ليسأل عن أحكام الإسلام، فلا يجد هذا الرجلُ الغريبُ أمامه مانعاً أو حاجباً يحول بينه وبين رسول الله ﷺ، الرجلِ الأولِ في الدولة الإسلامية، وهو على المنبر يخطب في الناس، فيتقدّم إليه سائلاً مستفسراً، فيقبل عليه الرسول الكريم بكل بساطة وتواضع وحنوّ، ويجيبه إلى سُؤْلِهِ. ولْنَدَعْ تميماً يحدثنا عن ذلك كله، فيما رواه عنه الإمام مسلم، قال:

«انتهيت إلى رسول الله ﷺ، وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه؟ فأقبل عليّ رسول الله ﷺ، وترك خطبته حتى انتهى إليّ، فأُتِيَ بكرسي، فقعد عليه وجعل يعلّمني مما علّمه الله، ثم أتى خطبته فأتمّ آخرها».

ولقد كان رسول الله ﷺ يغرس في نفوس الصحابة خلق التواضع المبني على السماحة ولين الجانب ودماثة الطبع، فيقول:

«لَوْ دُعِيتُ إلى ذِراعٍ أو كُراعٍ[1] لَأَجَبْتُ، ولَوْ أُهْدِيَ إلَيَّ ذِراعٌ أو كُراعٌ لَقَبِلْتُ»[2].

فيا لَلتواضع في أجلى صوره! ويا لَلعظمة الإنسانية في أسمى معانيها!

لا يَسْخَرُ مِنْ أَحَدٍ:

والشخصية الإسلامية التي أُشْرِبَتْ حبَّ التواضع بعيدة كل البعد عن احتقار الناس والسخرية منهم؛ ذلك أن الهَدْي القرآني الذي غرس فيها حبَّ التواضع والبعد عن الكِبْر والاستعلاء، نهاها في الوقت ذاته عن السخرية من الناس واحتقارهم:

---

(١) الكراع من الدابة: ما بين الركبة إلى الساق.

(٢) رواه البخاري.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ[1] وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ[2] بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[3].

وبيّن رسول الله ﷺ أن احتقار المسلم أخاه شرٌّ محض، أيّ شرّ:

«بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أخاه المُسْلِمَ»[4].

يُجِلُّ الكبيرَ وصاحبَ الفضل:

لقد جاء هَدْي الإسلام يحضّ المسلمين على احترام الناس، لا على احتقارهم وازدرائهم، وبخاصة إذا كانوا جديرين بالتقدير والاحترام، بل إنه ليعدّ احترام الكبير والعالِم وصاحب الفضل من الأصول الأخلاقية الكبرى التي تعطي للمسلم هويته في المجتمع الإسلامي، ومَنْ فقدها انخلع من عضوية هذا المجتمع، وجُرِّد من شرف الانتساب لأمة الإسلام، كما قرر ذلك الرسول الكريم بقوله:

«لَيْسَ مِنْ أُمّتي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبيرَنا، ويَرحَمْ صَغِيرَنا، ويَعرِفْ لِعَالِمنا حَقَّهُ»[5].

إن احترام الكبير في المجتمع، وتقديمَه على مَنْ هو أصغر منه دليلُ رقيّ ذلك المجتمع، وآيةُ فَهمِ أعضائه لقواعد الأخلاق الإنسانية، وعلامةٌ على سموّ نفوسهم وتهذيبها، ومن أجل ذلك كان رسول الله ﷺ يحرص على أن يؤكد هذا

---

(١) أي لا يَعِبْ بعضُكم بعضاً.

(٢) أي لا يَدْعُ بعضُكم بعضاً باللقب السوء.

(٣) الحجرات: ١١.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه أحمد والطبراني وإسناده حسن.

المعنى في نفوس المسلمين، وهو يرفع قواعد المجتمع الإسلامي، ويرسي دعائم الأخلاق فيه.

ومن شواهد حرصه على هذا المعنى قولُه لعبد الرحمن بن سهل إذ رآه يتكلم، وكان أصغر القوم في الوفد الماثل بين يدي الرسول: «كَبِّرْ، كَبِّرْ»[١]، فسكت عبد الرحمن، وتكلم مَنْ هو أكبر منه[٢].

ويذهب رسول الله ﷺ إلى أبعد مدى في تقدير الكبار وأصحاب الفضل، فيجعل إكرامهم من إجلال الله تعالى؛ وذلك في قوله:

«إنَّ مِنْ إجْلالِ اللَّهِ تَعالى إكرامَ ذي الشَّيْبَةِ المُسْلِم، وحامِلِ القُرآنِ غيرِ الغالي فيهِ والجافي عَنْهُ[٣]، وإكْرامَ ذي السُّلطانِ المُقْسِط[٤]»[٥].

ولقد أثمرت هذه التربية في نفوس الجيل الأول من المسلمين، فأنشأت رجالاً تجسَّدت فيهم تلك الأخلاق الفاضلة، فكانوا نماذجَ فذّة في إجلال الكبار وأصحاب الفضل، أذكر منها على سبيل المثال أبا سعيد سَمُرة بن جندب رضي الله عنه الذي يقول:

«لقد كنتُ على عهْد رسول الله ﷺ غُلاماً، فكنتُ أحفظُ عنه، فما يَمنَعُني من القولِ إلّا أنَّ ها هنا رِجالاً هُمْ أَسَنُّ منّي»[٦].

ومن هذه النماذج التي يحتاج كل مسلم إلى التأسّي بها في إجلال

---

(١) أي ليتكلم الأكبر.

(٢) متفق عليه.

(٣) أي التارك له، البعيد عن تلاوته والعمل بما فيه.

(٤) أي العادل.

(٥) حديث حسن رواه أبو داود.

(٦) متفق عليه.

الكبار وأصحاب الفضل عبدُ الله بن عمر رضي الله عنه، فقد حضر مجلسَ رسول الله ﷺ، وفيه أبو بكر وعمر، فسأل رسولُ الله ﷺ سؤالاً عرف ابنُ عمر جوابه، ولكنه لم يتكلم احتراماً لأبي بكر وعمر، وفي ذلك يقول عبد الله بن عمر، قال رسول الله ﷺ:

«أخْبِروني بشَجَرةٍ مثلُها مَثَلُ المسْلِمِ، تُؤْتِي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذنِ رَبِّها، لا تَحُتُّ وَرَقَها»، فوقع في نفسي: النَّخْلَة، فكرهتُ أن أتكلمَ، وثَمّ أبو بكر وعمر. فلمّا لم يتكلما قالَ النبي ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ». فلمّا خرجتُ معَ أبي قلت: يا أبَتِ! وقَعَ في نفسي النخلة، قالَ: ما منَعَك أن تقولَها؟ لو كنتَ قلتَها كانَ أحبَّ إليَّ مِنْ كذا وكذا. قالَ: ما مَنَعَني إلاّ لم أرَكَ، ولا أبا بكر تكلّمتُما، فكرِهتُ[1].

لقد أنزل الإسلام الناس في المجتمع الإسلامي منازلهم، وذلك بأمر من رسول الله ﷺ، وقد ذكر ذلك الإمام مسلم في أول صحيحه، فقال:

وذُكِرَ عن عائِشَةَ رضي الله عنها، قالت: «أمرَنا رسولُ الله ﷺ أنْ نُنْزِلَ النّاسَ منازِلَهمْ».

ومن إنزال الناس منازلَهم أن تُعرَفَ أقدارُهم، فيُقَدَّمَ العلَماءُ وحَمَلةُ القرآن وأصحابُ العقول الراجحة وأهلُ الفضل.

ذلك أن للعلماء مكانهم المرموق العالي في المجتمع الإسلامي، ما داموا أمناء على شريعة الله، صدّاعين بالحق، حُرّاساً لشعائر الإسلام، وقد بوّأهم اللّهُ تلك المنزلةَ الكريمة إذ قال:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2].

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) الزمر: ٩.

ولِحَمَلة القرآن منزلتُهم العالية أيضاً في المجتمع الإسلامي، نوّهت بها الأحاديث الصحيحة، فجعلَت لهم الإمامةَ في الصلاة، والصدارةَ والإجلالَ في المجالس:

«يَؤُمُّ القَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكتابِ اللَّهِ، فإنْ كانوا في القِراءَةِ سَواءً، فأَعْلَمُهُمْ بالسُّنَّةِ، فإنْ كانوا في السُّنَّةِ سَواءً، فأقْدمُهمْ هِجْرةً، فإنْ كانوا في الهِجْرَةِ سَواءً، فأَقْدَمُهمْ سِنّاً، ولا يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ في سُلْطانِه[1]، ولا يَقْعُدْ في بَيْتِهِ على تَكْرِمَتِهِ[2] إلّا بِإِذْنِهِ»[3].

ولقد مر بنا قبل قليل قولُ الرسول ﷺ:

«إنَّ مِنْ إجلالِ الله تَعالَى إكْرَامَ ذي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ وحامِلِ القُرْآنِ غيرِ الغالي فيه والجَافي عَنْهُ»[4].

ولما وقف رسول الله ﷺ يُواري شهداءَ الإسلام في أُحُد جاعلاً في كل قبر اثنين كانَ يسألُ: «أيُّهما أكثرُ أَخْذاً لِلْقرآن[5]؟» فإذا أُشِيرَ له إلى أَحَدٍ قدَّمَه في اللَّحْد[6].

وكان من توجيه النبي ﷺ الحصيف الرائع في تنزيل الناس منازلهم قولُه قبلَ الصلاة، وهو يسوّي الصفوف:

«لِيَلِني مِنْكُمْ أُولو الأحلامِ والنُّهَى[7]»[8].

---

(١) أي محل ولايته، أو الموضع الذي يختص به.

(٢) أي الموضع الذي ينفرد بالجلوس فيه.

(٣) رواه مسلم.

(٤) حديث حسن رواه أبو داود.

(٥) أي حفظاً له.

(٦) رواه البخاري.

(٧) أولو الأحلام: أهل الحلم والفضل. والنُّهى: العقول.

(٨) رواه مسلم.

وإنه لتوجيه حكيم له دَلالاتُه الجمّة الغزيرة، وفي مقدمتها تَصنيفُ الناس حسب مقاماتهم ومنازلهم ورتبهم. ومكان أصحاب العقول الراجحة وراء النبي ﷺ في الصلاة يرشحهم للاضطلاع بشتى أمور المسلمين، كلٌّ حسَب طاقته واختصاصه وإمكاناته.

ومن هنا كان رسول الله ﷺ فيما يروي الحَسَن عن أبيه يؤثر أهل الفضل بأدبه وقسمه على قدر فضلهم في الدين، ويُكْرِم كريمَ كل قوم، ويولّيه عليهم، وكان مجلسه عامراً بالصفوة من المؤمنين العدول الذين يتفاضلون دوماً بالتقوى، ويوقّرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب[1].

والمسلم الحق من فَقِه هذه الحقائق كلها، وكان متمثلاً لها في سلوكه الاجتماعي مع الناس عامة، ومع العلماء وأعيان الفضل وهامات الشرف والتقوى خاصة.

يُعاشِرُ كِرامَ النّاسِ:

ومن خلائق المسلم التقي الاتصالُ بالصالحين، والتقرّبُ إليهم، وطلبُ الدعاء منهم، لا يجد حرجاً في ذلك، مهما بلغ من علوّ المنزلة وشرف القدر ورفعة المكانة، عملاً بقوله تعالى:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[2].

---

(١) انظر حياة الصحابة: ١/٢١، ٢٢، ٢٣.

(٢) الكهف: ٢٨.

ذلك أن عِشْرَةَ الصالحين ترشح على معاشريهم بالخير والتقوى والسَّداد في القول والعمل، وتزيدهم تفقّهاً في الدين، وإقبالاً على الحق، حتى يُعَدّوا في زمرة الصالحين:

بِعِشْرَتِكَ الكِرامَ تُعَدُّ مِنْهُمْ فَلا تُرَيَنْ لِغَيْرِهِمُ أَلُوفا

لقد سَعى نبيُّ الله موسى عليه السلام وراءَ العبد الصالح ليتعلم منه، قائلاً له بكل تواضع وأدب:

﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ؟﴾[١].

وعندما أجابَه العبدُ الصالح:

﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[٢].

قال له موسى عليه السلام بتودّد بالغ وأدب جَمّ:

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾[٣].

إن المسلم الحق الواعي لا يألف إلا الأخيار من الناس؛ لأنه فَقِه من هَدْي دينه أن الناس كالمعادن، منها النفيسُ ومنها الخسيسُ، وأن الطيب لا يألف إلاّ طيّباً:

«النّاسُ مَعادِنُ كَمعادِنِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، خِيارُهُمْ في الجاهِلِيَّةِ خِيارُهُمْ في الإسْلام إذا فَقُهوا، والأرْواحُ جُنودٌ مُجَنَّدَةٌ، فما تَعارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وما تَناكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»[٤].

وإنه ليعلم من هَدْي دينه أيضاً أن الجُلساء صِنْفان، جليسٌ صالحٌ،

---

(١) الكهف: ٦٧.
(٢) الكهف: ٦٨.
(٣) الكهف: ٧٠.
(٤) رواه مسلم.

وجليسُ سوءٍ، فالجليسُ الصالحُ كحامل المسك، في مجالسته الاسترواح والعطاء والعطر والسرور، وجليسُ السوء كنافخ الكير، في مجالسته وهج اللهب والدخان والنَّتن والكآبة، وقد مثّل ذلك الرسول الكريم صلوات الله عليه أروع تمثيل بقوله:

«إنما مَثَلُ الجليسِ الصّالِحِ وجَليسِ السُّوءِ: كَحامِلِ المِسْكِ ونافِخِ الكِيرِ، فحامِلُ المِسْكِ: إمّا أنْ يُحْذِيَكَ، وإمّا أنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وإمّا أنْ تجدَ منهُ ريحاً طَيِّبَةً. ونافِخُ الكِيرِ: إمّا أنْ يُحْرِقَ ثِيابَكَ، وإمّا أن تجدَ منهُ ريحاً مُنْتِنَةً»[1].

ومن هنا كان الصحابة الكرام يتحاضُّون على زيارة أهل الخير الذين يذكّرون بالله، ويرقّقون القلوب، ويستدرّون دموع الخشية والعِظة والاعتبار من المآقي، وفي ذلك يروي أنس رضي الله عنه هذه الواقعة:

«قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة النبي ﷺ: انطلق بنا إلى أمّ أيمن[2] نزورُها كما كان رسول الله ﷺ يزورُها. فلما انتهيا إليها بَكَتْ، فقالا لها: ما يُبْكيكِ؟ ما عندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرسولِ الله ﷺ، فقالَتْ: ما أَبْكي أَنْ لا أكونَ أَعْلَمُ أنّ ما عندَ اللَّهِ خيرٌ لِرسولِ اللَّهِ ﷺ، ولكنْ أبكي أنَّ الوَحْيَ قد انقطَعَ من السّماء، فَهيَّجَتْهُما على البُكاءِ، فجَعَلا يَبْكِيانِ معَها»[3].

بمثل هذه المجالس التي تحُفُّها الملائكة، ويُظِلُّها المولى سبحانه برحمته، يقوى إيمان الإنسان، وتصفو روحه، وينجلي قلبه، وتزكو نفسه، ويغدو خيْراً مَحْضاً على نفسه وأسرته ومجتمعه، وهذا ما يهدف إليه الإسلام في مخاطبة الناس وتوجيههم أفراداً وجماعات.

---

(١) متفق عليه.

(٢) هي حاضنة رسول الله وخادمته في طفولته، أعتقها النبي ﷺ حين كبر، وزوّجها زيد بن حارثة، وكان ﷺ يكرمها، ويبرّها، ويقول: «أم أيمن أمي».

(٣) رواه مسلم.

يَحْرِصُ عَلَىٰ نَفْعِ النّاسِ ودَفْعِ الضُّرِّ عَنْهُمْ:

والمسلم الذي تربّى على هَدْي الإسلام، وارتوت نفسه من مَعينه الطَّهور، حريصٌ كل الحرص على نفع الناس في مجتمعه، ودفع الأذى عنهم؛ ذلك أنه بحكم تكوينه وتنشئته على مبادىء الحق والخير والفضيلة غدا عنصراً بنّاءً فعّالاً نافعاً، لا يطيق أن يرى الفرصة متاحة لفعل الخير ولا ينتهزها، وإنه ليعلم أن فعل الخير يؤدي إلى الفلاح:

﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

إنه ليسارع إلى فعل الخير، واثقاً بمثوبة الله له في كل خطوة يخطوها في فعل الخير:

«كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فيه الشَّمْسُ تَعْدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ[2] صَدَقَةٌ، وتُعِينُ الرَّجُلَ في دابَّتِهِ فتَحْمِلُهُ عَلَيْها، أوْ ترفَعُ لهُ عَلَيْها مَتاعَهُ صَدَقةٌ، والكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وبكلِّ خُطْوَةٍ تَمْشيها إلى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ، وتُمِيطُ الأَذَى عنِ الطَّريقِ صَدَقَةٌ»[3].

وما أروعَ هذا المزجَ بين الأفعال الاجتماعية الخيِّرة التي يقوم بها المسلم في حياته الاجتماعية وبين المشي للصلاة، تأكيداً من رسول الله ﷺ على أن هذا الدين إنما جاء لصلاح أمر الإنسان كله، في دنياه وآخرته، لا تفريق بين الدين والدنيا، والحياة الاجتماعية والحياة الروحية؛ فأعمال الإنسان في تصور المسلم الواعي هَدْيَ هذا الدين كلُّها عبادة، ما دام متّجهاً في نيته إلى الله، مبتغياً بها وجهَه الكريم.

ومن هنا كانت أبواب الخير مفتوحة أمام المسلم التقي، يَلِجُها متى

---

(١) الحج: ٧٧.

(٢) أي تصلح بينهما بالعدل.

(٣) متفق عليه.

شاء، مُستَنزِلاً رحمةَ اللّهِ الثَّرّةَ الواسعةَ، مُستكثِراً من ثوابه الجم وفضله العميم.

فعن جابر عن النبي ﷺ، قال: «كُلُّ مَعروفٍ صَدَقَةٌ»(١).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: «الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ»(٢).

بل إن رحمة الله لتدرك الإنسان الذي أسلم لله وجهه، وأخلص له نيّته، فتجعله مُثاباً إن فعل أثارةً من خير، ومُثاباً إن لم يفعل، شريطة أن يمسك عن الشرّ:

فعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «على كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ». قالوا: يا رسول الله، أرأيتَ إنْ لم يَجِدْ؟ قال: «يَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَه ويَتَصَدَّقُ»، قالوا: أرأيتَ إنْ لم يستطعْ أو لم يفعل؟ قال: «يُعينُ ذا الحاجَةِ الملهوفَ»، قالوا: أرأيتَ إنْ لم يفعل؟ قال: «يأمرُ بالمَعْروف أو بالخير»، قالوا: أرأيتَ إنْ لم يفعلْ؟ قال: «يُمسِكُ عنِ الشَّرِّ فإنَّها له صَدَقَةٌ»(٣).

لقد استهل الرسول الكريم حديثه بقوله: «على كل مسلم صدقة»، ثم راح يعدّد ألوان البِرّ والخير والمعروف التي يستطيع المسلم أن يجني منها أجور تلك الصدقات؛ فالمسلم إذاً عليه صدقة، أي عليه أن يقوم بالأعمال البنّاءة الخيّرة في مجتمعه، فإن عجز، أو لم يفعل لسبب من الأسباب، فلا أقلّ من أن يكفّ لسانه وجوارحه عن فعل الشرّ، ففي ذلك أيضاً صدقة، وإيجابيات المسلم وسلبياته كلها موجهة في خدمة الحق الذي يسود مجتمع المسلمين، والمسلم: «مَنْ سَلِمَ المُسْلِمونَ مِنْ لِسانِهِ ويدِهِ»(٤).

---

(١) متفق عليه.

(٢) من حديث متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه البخاري.

بل إن رسول الله ﷺ ليجعلُ خيرَ المسلمين في المجتمع الإسلامي مَنْ يُرجَى خيرُه ويُؤْمَنُ شرُّه، وذلك فيما رواه الإمام أحمد أن النبي ﷺ وقف على ناس جلوس فقال:

«أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِكُمْ مِنْ شَرِّكُمْ؟»، فسكت القوم، فأعادها ثلاث مرات، فقال رجل من القوم: بلى يا رسول الله، قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ، وشَرُّكُمْ مَنْ يُرجَى خَيْرُهُ ولا يُؤْمَنُ شَرُّهُ».

إن المسلم لا يقدم لمجتمعه إلّا الخير، فإن لم يفعل أحجم عن الشرّ، وأمسك عن الأذى، والمسلم الحق هو الذي يفعل الخير دوماً، ولا يصدر عنه شرّ؛ ذلك أنه ينطلق دوماً من قول الرسول ﷺ:

«لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتّى يُحِبَّ لِأَخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ».

وحب المسلم لإخوانه المسلمين ما يحب لنفسه يعني الحرص على نفعهم ودفع الأذى عنهم، ويعني شيئاً آخر يميز الفرد في المجتمع الإسلامي، وهو فعاليتُه ونشاطه ودأبه في خدمة إخوانه المسلمين، يمد في نبعة نشاطه في هذا الميدان قول الرسول ﷺ:

«لا يزالُ اللَّهُ في حاجَةِ العَبْدِ ما دامَ العَبْدُ في حاجَةِ أخيهِ»[٢].

وقوله:

«المُسْلِمُ أخو المُسْلِم، لا يَظْلِمُهُ ولا يُسْلِمُهُ، مَنْ كانَ في حاجَةِ أَخيهِ كانَ اللَّهُ في حاجَتِهِ، ومَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عنهُ كُرْبَةً مِن كُرَبِ يومِ القيامَةِ، ومَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ يومَ القيامَةِ»[٣].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٣) متفق عليه.

وقوله:

«مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنيا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يومِ القيامَةِ، ومَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ علَيهِ في الدُّنيا والآخرَةِ»(١).

ويسمو الهَدْي النبوي في إشاعة روح التعاون في المجتمع الإسلامي، فيجعل مِشْيَة الأخ في حاجة أخيه خيراً من الاعتكاف الطويل، كما في حديث ابن عباس عن النبي ﷺ: قال: «مَنْ مَشَى في حاجَةِ أَخيهِ كانَ خيراً لَهُ مِن اعتكافِهِ عشرَ سِنين، ومَنِ اعتَكَفَ يوماً ابتغاءَ وَجْهِ اللَّهِ جَعَلَ اللَّهُ بينَهُ وبينَ النّارِ ثلاثَ خَنادِقَ، كُلُّ خَنْدَقٍ أبعدُ ممّا بينَ الخافِقَيْنِ»(٢).

ويجعل التبرّمَ من خدمة الناس مع القدرة عليها مهدِّداً النِّعَمَ بالزوال، كما في حديث ابن عباس أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما مِنْ عَبْدٍ أنعَمَ اللَّهُ علَيْهِ نِعْمَةً فأسبَغَها عَلَيْهِ، ثُمَّ جُعِلَ مِنْ حَوائِجِ النّاسِ إليهِ فَتَبَرَّمَ، فَقَدْ عَرَّضَ تلكَ النِّعمَةَ لِلزوالِ»(٣).

ومن الصور الوضيئة المشرقة التي رسمتها الأحاديث الصحيحة لأهل الجنة، صورةُ رجل يتقلب في أعطاف النعيم في الجنة، لأنه أماط عن طريق المسلمين شجرة كانت تؤذيهم في غدوّهم ورَواحهم، ونجد ذلك في قول الرسول ﷺ:

«لَقَدْ رَأيتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ في الجَنَّةِ في شَجَرَةٍ قَطَعَها مِنْ ظَهْرِ الطَّريقِ، كانَتْ تُؤْذي المُسْلمينَ»(٤).

إن دفع الأذى عن المسلمين هو الوجه الآخر للخير الذي يُقدِّم لهم بما

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط وإسناده جيد.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط وإسناده جيد.

(٤) رواه مسلم.

ينفعهم من أعمال. والذي يُجَنِّب المسلمين الأذى والضُرّ هو كمَن يقدم لهم الخير والنفع، فكلاهما نَفَعَ المسلمين، وفاز بثواب الله ورحمته ورضوانه. ومن هنا كان التوجيه النبوي للمسلمين يتناول الوجهين: تقديم النفع، ودفع الضرّ؛ ففيهما معاً تسعد الجماعة، وتزدهر المجتمعات، وتنمو أواصر المودّة في القلوب.

ومن هذا التوجيه العالي في دفع الأذى عن المسلمين ما يرويه أبو برزة، قال: قلت: يا نبي الله، علّمني شيئاً أنتفع به، قال:

«اعْزِلِ الأَذَى عَنْ طَرِيقِ المُسلِمينَ»[1].

وفي رواية: يا رسولَ الله دُلّني على عمل يدخلني الجنة، قال:

«أَمِطِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ فَهُو لَكَ صَدَقَة»[2].

فأي مجتمع مهذَّب راقٍ هذا المجتمع الذي يبنيه الإسلام، إذ يلقي في حِسِّ كل فرد فيه أن من الأعمال الصالحة التي تقرّب من الله، وتدخل صاحبَها الجنّة، إماطةَ الأذى عن طريق الناس؟ إن مجتمع المسلمين الذي تعيش فيه أمثال هذه التوجيهاتِ التربوية العالية نابضةً متدفقةً في النفوس، لَمِنْ أرقى مجتمعات الأرض بلا ريب؛ إذ لا يتصوَّر إنسانٌ أن يَلْقَى فيه ما يلقاه الناسُ اليومَ في الطريق العام من أكوام الفضلات والقاذورات ومخلَّفات البناء، وغير ذلك مما تعاقِبُ البلديّات عليه الناس، وتحمّلهم الغرامات الباهظة إن هم ألقوا هذا الأذى في الطريق.

وما أعظمَ الفرقَ بين مجتمع اهتدى بهَدْي هذا الدين، فسارع الأفراد فيه لإماطة الأذى عن الطريق امتثالاً لأمر الله، وطمعاً في مثُوبته، وبين مجتمع

---

(١) رواه مسلم.

(٢) حديث صحيح رواه أحمد.

شَرَدَ عن هَدْي الله، فإذا أفراده لا يبالون على مَنْ تسقط فضَلاتُهم التي يُلْقونها من فوق الشرفات والنوافذ وأسطحة المنازل!

ولقد استطاع العالَم الغربيّ المتمدّن أن يصل في مثل هذه الأمور إلى مستوى عالٍ من التنظيم بتعويد أفراده على احترام النظام، وتطبيقه بدقة وصرامة. بيد أنّ هذا المستوى الاجتماعيَّ العالي عند الغرب يبقى دون المستوى الاجتماعي الإسلامي الصحيح؛ لسبب واضح، هو أن الفرد المسلم الذي أحكم الإسلام تربيته أكثرُ دقةً وأشدُّ إخلاصاً في تطبيق النظام، لأنه يعتقد أن الخروج عن هذا النظام عصيانٌ لله، يُعاقَب عليه في يوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بَنونَ إلاّ مَنْ أتى اللّهَ بقلب سليم، على حين لا يرى الغربيُّ في مخالفته النظامَ أكثرَ من ذنب، قد يؤنبه ضميره عليه، وقد لا يؤنّبه، ثم ينتهي الأمر، وبخاصّة إذا كانت عينُ السلطة غافلةً عنه.

يَسْعَىٰ بِالصُّلْحِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ:

ومن الاهتمام بأمر المسلمين، والحرص على نفعهم، ودفعِ الأذى عنهم، السَّعْيُ بالصلح بينهم إن كانوا متخاصمين، والنصوصُ في وجوب الصلح بين المسلمين أكثرُ من أن تتّسعَ لها هذه الصفحات، منها قولُه تعالى:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1].

إنه أمر رباني حاسم بالصلح بين الطائفتين المتقاتلتين، ولو أدّى الأمر إلى قتال الفئة المتعنّتةِ الباغية، حتى يسودَ العدلُ مجتمع المؤمنين، وترِفُّ الأُخُوّةُ بِنَداها النقيّ العطر في سمائه من جديد:

---

(١) الحجرات: ١٠.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[١].

ولقد كان رسول الله ﷺ يسعى بنفسه للصلح بين المتنازعين، على ما كان يشغله من أعباء الدعوة وتكاليفها، مؤكداً للمسلمين بسَعْيه هذا وجوبَ الصلح بين المتخاصمين، فعن أبي العباس سهل بن سعد الساعديّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بلغه أن بني عمرو بن عوف كان بينهم شرّ، فخرج رسول الله ﷺ يصلح بينهم في أناس معه حتى حانت الصلاة... في حديث طويل متفق على صحته.

لقد كان الرسول ﷺ يحرص الحرصَ كلَّه على أن تسود الأخوّة مجتمع المؤمنين، ويرفرف الوئام والصفاء والتفاهم في حياتهم، فكان لا يفتأ يحضّهم على فعل المعروف والتسامح والتغاضي والرفق، بأقواله وأفعاله، ويولي هذا الجانب التربوي كثيراً من اهتمامه وعنايته، حتى يحوّل فورة الغضب والخصومة والتعنّت إلى بسمة رضا وصفاء وتسامح، ومن ذلك ما روته أمّ المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، قالت:

سمع رسول الله ﷺ صوتَ خصومٍ بالباب عاليةٍ أصواتُهما، إذا أحدُهما يستوضِعُ الآخر[٢]، ويسترفِقُه[٣] في شيء، وهو يقول: والله لا أفعلُ، فخرج عليهما رسول الله ﷺ، فقال: «أينَ المُتألّي على الله[٤] لا يَفْعَلُ المَعْروفَ؟». وهنا ذاب الخصم خَجَلاً، إذ سمع صوت رسول الله ﷺ مستنكراً معاتباً، فتنازل عن حقه قائلاً: أنا يا رسول الله، فلَه أيُّ ذلك أحبَّ[٥].

وفي سبيل ذلك الإصلاح بين الناس كان الرسول ﷺ يرخّص في كثير

---

(١) الحجرات: ١١.
(٢) أي يسأله أن يضع عنه بعض دينه.
(٣) أي يسأل الرفق.
(٤) أي الحالف.
(٥) متفق عليه.

من الأقوال التي يتزيّد فيها الناس ابتغاء استمالة النفوس النافرة، وتليين القلوب المتحجّرة، ولا يعدّ هذه الأقوال من الكذب الحرام، ولا قائليها من الكذّابين الآثمين، ونجد ذلك في حديث أم كلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعَيْط رضي الله عنها، قالت:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليسَ الكَذّابُ الذي يُصْلِحُ بينَ النّاسِ، فَيَنْمي خَيراً[1]، أو يقولُ خَيراً»[2]. وفي رواية لمسلم زادت: ولم أسمعه يرخّص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: تعني الحربَ والإصلاحَ بين الناس وحديثَ الرجل امرأتَه، وحديثَ المرأة زوجَها.

داعِيَةٌ إِلَىٰ الحَقِّ:

والمسلم الحق دائم الحركة والنشاط، يعيش دوماً في دعوته، لا ينتظر الحوادث والدوافع لتحركه نحو الخير، بل يبادر من تلقاء نفسه إلى دعوة الناس إلى الحق، مبتغياً الثوابَ الجزيل الذي أعدّه الله للدعاة المخلصين، كما جاء في حديث النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه:

«فَواللَّهِ لأَن يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً واحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[3].

إن كلمة طيبة يلقيها الداعية الصادق في أذن امرىء شارد عن الطريق، فيغرس بها بذرة الهداية في قلبه، تعود على الداعية بثواب يَفوق حُمرَ النَّعَم، أنفسَ الأموال التي كان يتطلع إليها العرب آنذاك، ويضيف إلى ثوابه هذا أيضاً مثل أجور المهتدين على يديه، كما أخبر بذلك الرسول الكريم:

---

(١) أي يبلغ خبراً فيه خيرٌ.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري.

«مَنْ دَعا إلى هُدًى كانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا ينقُصُ ذلك مِنْ أُجورِهِم شَيْئاً»[١].

فلا عجَبَ أن يُحسَدَ الدّعاةُ على صبرهم وحسن بلائهم في سبيل الله، إذ ينفقون أموالهم وأوقاتهم في دعوة الشاردين المنحرفين عن الجادّة، وأن ينوّه بهذا الحسد المرغوب رسولُ الله ﷺ بقوله:

«لا حَسَدَ إلّا في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتاهُ اللّهُ مالاً فَسَلَّطَهُ على هَلَكَتِهِ في الحَقّ، ورَجُلٌ آتاهُ اللّهُ الحِكْمَةَ فهُوَ يَقْضي بها ويُعَلِّمُها»[٢].

ولا يستصغر المسلم بضاعته من العلم، وهو يدعو إلى الله، فحسبه أن يبلِّغ ما وصل إليه سمعه من الحق، ولو كان آية واحدة من كتاب الله، وهذا ما كان رسول الله ﷺ يأمر به أصحابه:

«بَلِّغوا عَنّي ولَوْ آيَةً...»[٣].

ذلك أن هداية الإنسان قد تكون متوقفة على كلمة في هذه الآية تلامس قلبه، فتصادف مكمناً من مكامن الإيمان، فإذا شرارةُ الهداية تنقدح فيه، فتضيء حياة هذا الإنسان وقلبه جميعاً، ويغدو خلقاً آخر.

إن المسلم الحق غَيْريٌّ بطبعه، يحب لأخيه الإنسان ما يحب لنفسه، ويهتم بأمر المسلمين دوماً؛ وهو إلى ذلك ناصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم كما تقدّم في حديث سابق[٤]. ومن هنا لا يقتصر على هداية نفسه ومَنْ يعول، بل يعمل على إشاعة الهداية بين الناس. إنه لا يريد الجنة لنفسه

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) جزء من حديث رواه البخاري.

(٤) انظر ص: ١٦٨.

وأسرته فحسب، وإنما يريدها للناس جميعاً؛ ولذلك فهو دوماً يدعوهم إلى ما يوصلهم إلى الجنة ويبعدهم عن النار، وهذه هي أخلاق الداعية التي تميزه من الإنسان العادي، وإنها لأخلاق كريمة عالية، استحقّت من رسول الله ﷺ التنويه والثناء والدعاء:

«نَضَّرَ اللَّهُ امرَءاً سَمِعَ مِنّا شَيْئاً فبلَّغَه كمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سامِعٍ»[1].

إن المجتمع الإسلامي مجتمع متكافل، تعيش المسؤولية في نفوس أبنائه في أجلى معانيها وأصدق صورها، ولو فقه المسلمون مسؤوليتهم أمام الله، ونهض كل فرد واع بواجب الدعوة في مجتمعه لما انحط المسلمون وتخلّفوا عن هَدْي دينهم حتى وصلوا إلى الدّرك الذي هم فيه.

ومن هنا جاء الوعيد شديداً لمن يملك أسباب الدعوة ويتقاعس عنها، ويكتم ما آتاه الله من العلم، جاعلاً علمَه وسيلةً لارتقاء المناصب وبلوغ متاع الدنيا الزائل وحطامها الفاني:

«مَنْ تَعلَّمَ عِلْماً يُبْتَغى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ، لا يتَعَلَّمُهُ إلاّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنيا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ[2] يومَ القِيامَةِ»[3].

«مَنْ سُئِلَ عنْ عِلْمٍ فكَتَمهُ أُلْجِمَ يومَ القِيامَةِ بِلِجامٍ مِنْ نارٍ»[4].

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أي ريحها.

(٣) رواه أبو داود بإسناد حسن.

(٤) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن.

يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ:

ومن مقتضيات الدعوة إلى الله الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، ومن هنا كان المسلم الداعية آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر بعقل ورويّة وحسن تأتٍّ وحكمة. إنه يتصدى للمنكر فيزيله بيده إن استطاع، ولم يترتب على إزالته فتنة أشدّ، فإن لم يستطع إزالته بيده بيّن وجه الحق بلسانه وبيانه، فإن لم يستطع أنكر الباطل بقلبه، وراح يعدّ العدّة لاستئصاله من جذوره، وهذا مصداق قول الرسول ﷺ:

«مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ، فإنْ لمْ يَسْتَطِعْ فَبِلسانِهِ، فإنْ لمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وذلكَ أَضْعَفُ الإيمانِ»(١).

والمسلم حين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إنما ينصح للمسلمين الذين يأمرهم أو ينهاهم، والدين النصيحة؛ وإذا كان الدين النصيحة، فلا بد إذاً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتتحقّق النصيحة التي عرّفها رسول الله ﷺ بقوله:

«الدِّيْنُ النَّصِيحَةُ» قلْنا: لِمَنْ؟ قالَ: «لِلَّهِ ولِكِتابِهِ ولِرَسولِهِ ولأَئِمَّةِ المُسْلمينَ وعامَّتِهِمْ»(٢).

وإن هذه النصيحةَ وهذا الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر ليقودان المسلم الصادق الحرّ إلى الجهر بالحق في وجه الظالم. وإن بقاء هذه الأمةِ عزيزةً حرةً كريمةً منوطٌ بوجود رجال شجعان أحرار لا يخشَون أن يقولوا للظالم: أنت ظالم. ومتى خلَتِ الأمةُ من هذا النمَط من الرجال فقد تُوُدِّعَ منها، وهذا مصداق قول الرسول ﷺ:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

«إذا رأيْتَ أُمّتي تَهابُ الظّالِمَ أنْ تقولَ لَهُ: أنتَ ظالِمٌ، فقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ»(١).

ولقد جاءت النصوص النبوية تنفث في المسلمين روح البطولة في مواجهة الباطل، مُطَمْئِنَةً الأبطالَ إلى أن بطولتهم هذه في مواجهة الظالمين لا تنقص من رزق، ولا تقرِّب من أجل:

«لا يَمْنَعَنَّ أحدَكُمْ رَهْبَةُ النّاسِ أنْ يقولَ بحَقٍّ إذا رَآهُ ويُذَكِّرَ بعَظيمٍ، فإنَّهُ لا يُقَرِّبُ مِنْ أجَلٍ، ولا يُباعِدُ مِنْ رِزْقٍ»(٢).

وقام رجل إلى النبي ﷺ، وهو على المنبر، فقال: يا رسولَ الله، أيُّ الناس خير؟ قال: «خَيْرُ النّاس أقْرَؤُهُمْ وأتْقاهُمْ وآمَرُهُمْ بالمَعْروفِ وأنْهاهُمْ عنِ المُنْكَرِ، وأوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ»(٣).

وقد كان لتأصيل قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع الإسلامي أن غرس في نفوس المسلمين الصادقين الشجاعة والإقدام، واتخاذ المواقف الجريئة في مواجهة الباطل ونصرة المظلومين، وقد جاء الهَدْي النبوي معزِّزاً هذه الخلائق البطولية النبيلة، مؤكداً نصرَ الله للأبطال المنافحين عن الحق، وخذلانَه للجبناء الساكتين عنه:

«ما مِن امْرِىءٍ يَخْذُلُ مُسْلِماً في مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فيهِ مِنْ عِرْضِهِ، ويُنْتَهَكُ فيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ، إلّا خَذَلَهُ اللَّهُ في مَوْطِنٍ يُحِبُّ فيهِ نُصْرَتَهُ، وما مِن امْرِىءٍ يَنْصُرُ مُسْلِماً في مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فيهِ مِنْ عِرْضِهِ، ويُنْتَهَكُ فيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إلّا نَصَرَهُ اللَّهُ في مَوْطِنٍ يُحِبُّ فيهِ نُصْرَتَهُ»(٤).

---

(١) رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات.

(٤) رواه أحمد وأبو داود بإسناد حسن.

ومن هنا كان المسلم الحق صاحب قضية، لا يسكت عن باطل، ولا يقعد عن نصرة الحق، ولا يرضى أن يشيع الظلم في مجتمعه، ويفشو المنكر في ناديه، إنه يعمل دوماً على تغيير المنكر، دفعاً لعقاب من الله يوشك أن يعمّ القَعَدَةَ الجبناء الساكتين عن ذلك التغيير، كما أخبر بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن الرسول الكريم:

لما ولي أبو بكر رضي الله عنه صعد المنبر، فحمد الله، ثم قال: يأيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يأيُّها الذينَ آمَنوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ، لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُم﴾ وإنّكم تضعونها في غير مواضعها. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الناسَ إذا رَأَوُا المُنْكَرَ ولا يُغَيِّرونَهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقابٍ»[1].

إن المسلم الصادقَ إسلامُه، الحيَّ إيمانُه، أبعدُ ما يكون عن الميوعة والسلبية واللامبالاة، لا يتهاون في قضايا الدين، ولا يتقاعس عن الأمر بالمعروف، ولا يستمرىء المنكر ولا يألفه، ولا يقعد عن إنكاره وتغييره ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ فأمور الدين جدّ لا هزلَ فيها، وشؤون العقيدة حزم لا هوادة فيه. ولقد حذّرنا النبي ﷺ أن تؤول حالنا إلى ما كان عليه اليهود من ميوعة وتراخ ولا مبالاة في أمور دينهم، فيصيبنا ما أصابهم من غضب الله ونقمته، وذلك في حديث أبي موسى عن النبي ﷺ، قال:

«إنَّ مَنْ كانَ قبلَكُمْ مِنْ بَني إسْرائيلَ إذا عَمِلَ فيهمُ العامِلُ الخَطيئَةَ فَنهاهُ النّاهي تَعْذيراً، فإذا كانَ منَ الغَدِ جالَسَهُ وواكَلَهُ وشارَبَهُ، كأَنَّهُ لَمْ يَرَهُ على خَطِيئَةٍ بالأَمْسِ. فلمّا رأى اللَّهُ تَعالى ذلكَ منهمْ ضَرَبَ قلوبَ بَعْضِهِمْ على بَعْضٍ على لِسانِ داودَ وعيسَى بنِ مَرْيَمَ، ذلكَ بِما عَصَوْا وكانوا يَعْتَدون.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح.

والذي نفْسي بيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بالمَعْروفِ، ولَتَنْهُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، ولَتَأْخُذُنَّ علَى أيْدي المُسِيءِ، ولَتَأْطُرُنَّهُ على الحَقِّ أَطْراً، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بقُلوبِ بَعْضِكُمْ على بَعْضٍ، ويَلْعَنَكُمْ كَما لَعَنَهُمْ»[1].

لَبِقٌ حَكِيمٌ فِي دَعْوَتِهِ:

والمسلم الداعية الواعي كَيِّسٌ فَطِنٌ لَبِقٌ في وعظه، حكيم في دعوته الناسَ إلى الحق، متّئد في تعليمهم أحكامَ الدين، يترسَّم في ذلك كلّه قولَ الله تبارك وتعالى:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[2].

ذلك أن من أهم صفات الداعية إلى الله أن يحسن التغلغلَ في القلوب، فيحبِّبَ إليها الإيمان، ويرغِّبها بالإقبال على الدين، محاذراً أن يكون منه ما ينفّر أو يؤذي ويسخط، ومن هنا هو لا يصبّ على الناس كل ما لديه من علم دفعة واحدة، وإنما يقدّم لهم العلم على دفَعات، ويسوق لهم الموعظة في خطَرات، يلمس بها قلوبهم ومشاعرهم بين الحين والحين، متجنباً الإطالة والإثقال والإملال، وهذا ما كان رسول الله ﷺ يفعله في وعظه الناسَ، كما أخبرنا الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فقد كان عبد الله بن مسعود يتعهد الناس بالموعظة كل يوم خميس، فقال له رجل يا أبا عبد الرحمن: لَوددتُ أنك ذكّرتَنا كل يوم، فقال: «أما إنه يمنعُني مِنْ ذلكَ أنّي أكرهُ أنْ أُمِلَّكُمْ، وإنّي أتخوَّلُكُمْ بالموعِظَة[3] كما كان رسول اللَّهِ ﷺ يتخوَّلُنا بِها مخافةَ السآمة علَيْنا»[4].

---

(١) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) النحل: ١٢٥.

(٣) أي أتعهدكم بها في أيام متفرقة.

(٤) متفق عليه.

ومن لباقة الداعية وحسن أسلوبه في الدعوة ألّا يطيل في خطبته، وبخاصة إذا كان يخطب في جمهور غفير، فيه المسنّ والعاجز والمريض، فقِصَر الخطبة دلالة على فقه الخطيب بدعوته وحسن تفهّمه نفسيّات الجمهور الذي يستمع إليه، وهذا من هَدْي النبوّة العالي الذي أخبرنا به عمّار بن ياسر رضوان الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنَّ طولَ صَلاةِ الرَّجُلِ وقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ[١]، فأَطِيلوا الصَّلاةَ وأَقْصِروا الخُطْبَةَ»[٢].

ومن أسلوب الداعية الحكيم اللّبِق الكيِّس الفطِن الأريب أن يترفق بمَنْ يدعوهم، ويصبر على جهلهم وأخطائهم وأسئلتهم الكثيرة المملّة، وبِطْئِهم في الفهم والاستيعاب، متأسِّياً في ذلك كله بسيّد الدعاة وخاتم النبيين صلوات الله عليه الذي كان يفسح صدره للسائلين، ويتلطف في إجابتهم وتعليمهم، ويقبل عليهم إقبال المحب المرشد المؤنس المسدّد المعلّم، ولا يزال يشرح لهم المسألة حتى يفهموها وينصرفوا جذلين مغتبطين فاهمين مقتنعين.

ومن أمثلة ذلك ما يرويه الصحابي معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه، قال: «بَيْنا أنا أُصَلِّي معَ رسولِ الله ﷺ إذْ عَطَسَ رجلٌ من القوم[٣]، فقلتُ: يرحَمُكَ الله، فرَماني القومُ بأبْصارِهِمْ، فقلتُ: واثُكْلَ أُمَيَاهُ ما شأْنُكُمْ تَنْظُرونَ إليَّ؟ فجعلوا يَضْربون بأيديهم على أفخاذِهِمْ، فلمّا رأيتُهمْ يُصَمِّتُونَني[٤]، لكنني سَكَتُّ، فلمّا صلّى رسولُ الله ﷺ، فبأبي هُوَ وأُمّي[٥]،

---

(١) أي علامة دالة على فقهه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) أي المصلّين.

(٤) أي يسكّتونني غضبت.

ما رأيتُ مُعَلِّماً قبلَه ولا بعدَه أحسنَ تعْليماً منـهُ، فَواللَّهِ مـا كَهَرَني ولا ضَـرَبَني ولا شَتَمَني، قالَ: «إنّ هذه الصَّلاةَ لا يَصْلُحُ فيها شيْءٌ مِنْ كَلامِ النّاسِ، إنما هيَ التَّسْبيـحُ والتَّكبيـرُ، وقِـراءَةُ القُـرْآنِ» أو كمـا قـالَ رســولُ الله ﷺ. قلتُ: يا رسولَ الله إني حَديثُ عَهْدٍ بجاهِليّةٍ، وقد جاءَ اللَّهُ بالإسلامِ، وإنَّ منّا رِجالاً يـأتون الكُهّـان[1]! قال: «فَـلا تَأْتِهِمْ»، قلتُ: ومِنّـا رجالٌ يَتـطيَّرون![2] قـال: «ذاكَ شيءٌ يَجِدونَهُ في صُدورِهِمْ فلا يَصُدَّنَّهُمْ[3]»[4].

ولقـد بلغ من رفق النبـي الكريم بـالناس حين يـدعوهم إلى الخيـر أنـه لا يَجْبَـهُ المسيء بإسـاءته حـرصاً على مشـاعره أن تُخـدَش وعلى كـرامتـه أن تُهان، بل كان يلجأ إلى التـورية في استنكـار إساءتـه وتنبيهه إلى سـوء فعلته، وهـذا الأسلوب أوقـع في النفـوس، وأدخـل إلى القلوب، وأنجـع في مـداواة العلل والأخطاء.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنهـا: «كان النبـي ﷺ إذا بلغَـهُ عن رجل شيءٌ لم يقـل: ما بـالُ فلانٍ يقـول؟ ولكنْ يقولُ: مـا بالُ أَقْـوامٍ يقولـونَ كَـذا وكَذا...»[5].

ومن صفات الداعية الناجح تبيينُ كلامه وإيضاحـهُ للمخاطب، وتكـريرُه على مسـامعه، وهـذا ما كـان يفعله رسول الله ﷺ، كمـا يقول أنس رضي الله عنه:

---

(١) الكُهّان: جمع كاهن، وهو رجل يدّعي معرفة الضمير ويخبر عن المستقبل.

(٢) أي يتشاءمون.

(٣) أي فلا يمنعهم ذلك عن وجهتهم فإنه لا يؤثر نفعاً ولا ضراً.

(٤) رواه مسلم.

(٥) حياة الصحابة ٣/١٢٩.

«كانَ رسولُ الله ﷺ إذا تَكلَّمَ بِكَلِمَةٍ أعادَها ثَلاثاً حتّى تُفْهَمَ عَنْهُ، وإذا أتى عَلى قَوْمٍ فسَلَّمَ عليهم سَلَّمَ عليهمْ ثَلاثاً»[١].

وتقول السيدة عائشة:

«كان كلامُ رسولِ الله ﷺ كَلاماً فَصْلاً[٢]، يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ يَسْمَعُهُ»[٣].

لا يُنَافِقُ:

والمسلم الحق أبعد ما يكون عن النفاق والمداهنة والمجاملة المحرّمة والمديح الكاذب؛ ذلك أن له من هَدْي دينه ما يعصمه من التردّي في هذا المنزلق الخطير الذي يقع فيه كثير من الناس في هذا العصر، فيَهْوون من حيث لا يشعرون إلى قرار سحيق من النفاق المهلك الممقوت.

لقد وضع لنا رسول الله ﷺ صُوَى النجاة من هذا السقوط المريع في حمأة النفاق والمداهنة، إذ قال لبني عامر الذين أقبلوا يمدحونه بقولهم: أنتَ سيدُنا، فقال: «السَّيِّدُ اللَّهُ»، وقالوا: وأفضلُنا فضلاً، وأعظمُنا طَوْلاً، فقال: «قُولوا بقَوْلِكُمْ أو بَعْضِ قَوْلِكُمْ، ولا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطانُ[٤]. إني لا أريدُ أنْ تَرْفَعوني فوقَ مَنْزِلَتي التي أَنْزَلَنِيها اللَّهُ تَعالى، أنا محمدُ بنُ عبدِ اللَّهِ، عَبْدُهُ ورَسُولُهُ»[٥].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) أي بَيِّناً ظاهِراً.

(٣) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

(٤) لا يستجرينكم: من الجَرِيّ، وهو الوكيل. تقول: استجريت جَرِيّاً، أي اتخذت وكيلاً. يقول: تكلموا بما يحضركم، ولا تتنطّعوا، ولا تتكلّفوا، كأنكم وكلاء الشيطان ورسله، كأنما تنطقون عن لسانه.

(٥) حياة الصحابة ٣/٩٩.

لقد قطع رسول الله ﷺ الطريق على المادحين أن يسترسلوا في كيل المديح للناس، وفيهم مَنْ لا يستحق المديح، حين نهى مادحيه عن وصفه بالسيادة والفضل والطول، وهو سيد المسلمين وأعظمهم وأفضلهم لا ريب، لأنه كان يعلم أن باب المديح إذا فتح على مصراعيه أدى إلى مزالق خطيرة من النفاق، لا تستسيغها روح الإسلام الصافية النقية البريئة، ولا يقبلها الحق الذي قام عليه هذا الدين. وكان ينهى الصحابة عن مدح الإنسان في وجهه، لئلا يُسْتَجَرَّ المادحُ إلى النفاق، ولكيلا تأخذَ الممدوحَ نشوةُ التِّيهِ والاختيال والاستعلاء والإعجاب بالنفس.

أخرج الشيخان عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: أَثْنَى رجلٌ على رجلٍ عندَ النبيِّ ﷺ، فقال: «وَيْلَكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِكَ» ثلاثاً. ثم قال: «مَنْ كانَ مِنْكُمْ مادِحاً أَخاهُ لا مَحالَةَ فَلْيَقُلْ: أحسِبُ فُلاناً، واللَّهُ حَسِيبُهُ، ولا يُزَكّي على اللَّهِ أَحَداً، أحسِبُ كذا وكذا، إنْ كانَ يَعْلَمُ ذلِكَ مِنْهُ».

فالمديح إذا كان لا بد منه فينبغي أن يكون صادقاً منطبقاً على واقع الممدوح، وينبغي أن يكون معتدلاً متحفظاً لا غلوَّ فيه ولا شطط ولا مغالاة، وبذلك وحده ينقّى المجتمع من أوباء النفاق والكذب والمخاتلة والتزلّف والرياء والمجاراة.

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن رجاء عن مِحْجَن الأَسْلَمي رضي الله عنه أن رسول الله ومحجناً كانا في المسجد، فرأى رسول الله ﷺ رجلاً يصلي ويسجد ويركع، فقال الرسول ﷺ: «مَنْ هذا؟» فأخذ محجن يُطْريه، ويقول: يا رسولَ الله هذا فلان، وهذا فلان، فقال: «أَمْسِكْ، لا تُسْمِعْهُ، فَتُهْلِكَهُ!».

وفي رواية لأحمد: يا نَبِيَّ اللَّهِ، هذا فلان من أحسن أهل المدينة،

أو قال: أكثرُ أهلِ المدينة صلاةً، قال: «لا تُسْمِعْهُ، فتُهْلِكَهُ ــ مرتين أو ثلاثاً ــ إنَّكُمْ أُمَّةٌ أُريدَ بِكُمُ اليُسْر».

لقد سَمَّى الرسول الكريم إسماع المديح إهلاكاً، لما له من آثار نفسية عميقة في النفس البشرية المجبولة على حبّ سماعه، فإذا الممدوح يتيه على الناس، ويشمخ بأنفه، ويصعّر خدّه لهم، وإذا تكرر ذلك من المدّاحين المنافقين الكَذَبة الخدّاعين، وما أكثرَهم حول المتنفّذين وأصحاب المناصب والسلطات، صار ذلك عادة له، يلبّي رغبة جيّاشة في نفسه، ومن هنا يكره سماع النصيحة والنقد، ولا يقبل إلا التقريظ والثناء والإشادة وحرق البخور، ولا عجبَ بعد ذلك إذا ضاع الحق، وقُتِل العدل، وَوُئِدت الفضيلة، وفسَدَ المجتمع.

ومن أجل ذلك أمر رسول الله ﷺ صحابته أن يحثوا التراب في وجه المداحين، لكيلا يكثر سوادهم في المجتمع الإسلامي، وبكثرتهم يفشو النفاق، ويكثر التزلّف، ويعمّ البلاء.

أخرج الشيخان وأحمد والترمذي من غير طريق أن رجلاً قام يثني على أمير من الأمراء، فجعل المقداد رضي الله عنه يحثو في وجهه التراب، ويقول: قال رسول الله ﷺ:

«إذا رَأَيْتُمُ المَدّاحِينَ فَاحْثُوا في وُجوهِهِمُ التُّرابَ».

ومن هنا كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم يتحرّجون من المديح يكيله لهم هؤلاء المدّاحون، مع أنهم أحقُّ به وأهلُه، اتقاء مزالقه، وخشية هلكته، وتحلّياً بالخلق الإسلامي الأصيل البعيد عن هذه المظاهر الرخيصة الفارغة؛ فعن نافع رضي الله عنه وغيره أن رجلاً قال لابن عمر رضي الله عنه: يا خيرَ الناس! أو يابنَ خيرِ الناس! فقال ابن عمر: ما أنا بخَيْرِ النّاسِ ولا

ابنِ خيرِ النّاسِ، ولكني عبدٌ من عباد الله، أرجو الله تَعالَى وأخافُه، واللَّهِ لَنْ تَزالوا بالرجل حتى تُهْلِكوه[١].

وإنها لَقالَةٌ حكيمةٌ من صحابي جليل، مرهفِ الحس الإسلامي، وقّافٍ عند هَدْي النبي ﷺ، متحلٍّ به، في سرّه وعلانيته.

لقد فَقِهَ الصحابة الكرام هذا الملحظ الدقيق الذي ما فتيء الرسول الكريم يرشد إليه في الأعمال والأقوال وسلامتها من النفاق، وتوضَّحَ لديهم الفرقُ الكبير بين ما هو حق خالص لوجه الله، وما هو نفاق ومداهنة.

فعن ابن عمر رضي الله عنه أن ناساً قالوا له: إنا ندخل على سلاطيننا، فنقول لهم بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم، قال ابن عمر: «كُنَّا نَعُدُّ هذا نِفاقاً على عَهْدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ»[٢].

بَعِيدٌ عَنِ الرِّيَاءِ وَالْمُبَاهَاةِ:

والمسلم الحق الصادق أبعد ما يكون عن الرياء؛ لأنه يُحْبِط الأجر، ويبطل العمل، ويجلب الخزي لصاحبه يومَ يقومُ الناس لرب العالمين.

إن لبّ لباب هذا الدين الإخلاصُ لله في القول والعمل، وعبادةُ الله التي هي الهدفُ من خلق الجن والإنس، كما في قوله تعالى: ﴿وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلَّا ليَعْبُدونِ﴾، إن هذه العبادة لا تكون عبادة مقبولة إلا إذا كانت خالصة لوجه الله الكريم:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ[٣]﴾[٤].

---

(١) حياة الصحابة ٣/١٠٣.

(٢) رواه البخاري.

(٣) أي مائلين إلى الحق مستقيمين مخلصين.

(٤) البيّنة: ٥.

ومتى شابت هذه العبادةَ شائبةٌ من رياء أو حب ظهور وطلب لسمعة، بَطَلَتْ، ومُحِق ثَوابُها، ونجد هذا في تحذير الله لأولئك الذين ينفقون أموالهم على الفقراء، ويَمنُّون عليهم أن أغنوْهم، وسَدُّوا عَوَزَهم، وقضَوْا حوائجَهمْ، فيجرحون بهذا المنّ كرامة الفقراء:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[1] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ[2] فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا[3] ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[4].

لقد أودت كلمة المنّ على الفقراء بثواب هذه الصدقات، كما يُودي الماءُ المنسكب على الحجر الأملس بما عليه من تراب، ويأتي التعقيب المخيف المروّع في آخر الآية مبيّناً أن أولئك المرائين لا يستحقون هُدَى الله، وأنهم معدودون في زمرة الكافرين:

﴿والله لا يَهْدي القومَ الكافرينَ﴾.

ذلك أن شأنَ هؤلاء المرائين التظاهرُ أمام الناس بالعمل الصالح، وليس همُّهم مرضاةَ الله عز وجل، وقد حكى الله تعالى شأنهم هذا بقوله:

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[5].

ومن هنا كان عملهم مردوداً عليهم؛ لأنهم أشركوا مع الله غيرَه،

---

(١) أي حجر أملس ناعم.
(٢) أي مطر غزير.
(٣) أي أملس.
(٤) البقرة: ٢٦٤.
(٥) النساء: ١٤٢.

والله تَعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً مَحْضاً لـوجهه الكـريم، كما جاء في حديث أبـي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«قالَ اللَّهُ تعالى: أنا أَغْنَىَ الشُرَكـاءِ عن الشِّرْكِ، مَنْ عَمِـلَ عَمَلاً أَشْـرَكَ فيهِ معي غَيْري، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ»(١).

ولقد بسط رسول الله ﷺ القولَ في هذه المسألة بَسْطاً وافياً شاملاً، وبَيَّنَ الخزيَ الشَّنيعَ الذي يلقاه المراءون يوم العـرض الكبير، يـوم لا ينفع مـال ولا بنـون إلا من أتى الله بقلب سليم، وذلك في حـديث أبـي هريـرة أيضاً الـذي يقول فيه: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنَّ أَوَّلَ الناسِ يُقْضَى يومَ القِيامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِـدَ فأُتِيَ بِـهِ، فَعَرَّفَـهُ نِعْمَتَـهُ فَعَرَفَهـا، قالَ: فمـا عَمِلْتَ فيها؟ قـالَ: قاتَلْتُ فيـكَ حتّى اسْتُشْهِدْتُ، قالَ: كذَبْتَ، ولكنَّكَ قاتلتَ لِأَنْ يُقالَ: جَريءٌ! فقَـدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِـرَ بِهِ فسُحِبَ علَى وَجْهِهِ حتّى أُلْقِيَ في النّارِ. ورَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وعَلَّمَهُ، وقَرَأَ القُرْآنَ، فأُتِيَ بِهِ، فَعرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قالَ: فَما عَمِلْتَ فيهـا؟ قالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وعَلَّمْتُـهُ، وقَـرَأْتُ فيكَ القُـرْآنَ، قالَ: كَـذَبْتَ، ولكنّـكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقـالَ: عـالِمٌ، وقَـرأْتَ القُرْآنَ لِيُقالَ: قارِىءٌ! فقَدْ قِيـلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِـهِ فسُحِبَ علَى وَجْهِهِ حتّى أُلْقِيَ في النّـار. ورَجُلٌ وسَّـعَ اللَّهُ علَيْهِ، وأَعْـطاهُ مِنْ أَصْنافِ المـالِ، فأُتِيَ بِـهِ، فعرَّفَـهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَها، قالَ: فما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: ما تَرَكْتُ مِنْ سَبيلٍ تُحِبُّ أنْ يُنْفَقَ فيها إلاّ أَنْفَقْتُ فيها لَكَ، قالَ: كَذَبْتَ، ولكنّكَ فعَلْتَ لِيُقالَ: جَوادٌ! فَقَدْ قِيلَ، ثمّ أُمِرَ بِهِ فسُحِبَ علَى وَجْهِهِ حتّى أُلْقِيَ في النّارِ»(٢).

لقـد عرض هـذا الحديث الشـريف المَواطِنَ التي تكثـر فيهـا المبـاهـاة

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

والخيلاء والتفاخر بالعمل، وهي الشجاعة، والعلم، والكرم. وبيّن الخزيَ الذي يلقاه أصحابُها يوم القيامة إذ عُرُّوا أمام الناس من كل ما كانوا يأملون من ورائها من مقام حميد، كما بيّن الخسارة الكبرى التي حاقت بهم، إذ جُرِّدوا من كل الثواب الذي أعدّه الله لهذه الأعمال العظيمة، فإذا هم بدلَ أن يُزَفّوا إلى جنان الخلد، سُحِبوا على وجوههم إلى النار.

إن المسلم الحق الواعي أحكام دينه، المرهَفَ الإحساس بِهَدْيه الحكيم، لَيَنْأى عن الرياء في كل عمل من أعماله، ويحرص على أن يمحضها وجه ربه الكريم، واضعاً نصب عينيه وأذنيه قولَ الرسولِ الكريم صلوات الله عليه:

«مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ[1]، ومَنْ يُرائي يُرائي اللَّهُ به[2]»[3].

مُسْتَقِيمٌ:

والمسلم الحق الصادق مستقيم واضح بيّن، لا يعرف الالْتواءَ ولا الغموضَ ولا الجَمْجَمةَ ولا المخاتلةَ، على ما في الاستقامة من صعوبة وجَهْد ومشقّة، يصادفها الإنسان في حياته الاجتماعية.

ذلك أن الاستقامة في حياة المسلم وسلوكه ليست حِلْيَةً خلقية، له الخيارُ في أن يتحلى بها أو يدعَها، وإنما هي سلوك أمر به الله ورسوله، وجاءت مرتبتُه في الأهمية بعد الإيمان بالله في كثير من آي الذكر الحكيم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

---

(١) أي مَنْ أظهر عملَه للناس رياءً فضحه الله يوم القيامة.

(٢) أي مَنْ أظهرَ للناس عملَه ليعظم عندهم أظهر الله سريرته على رؤوس الخلائق.

(٣) متفق عليه.

﴿ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[1].

فما أجزَلَ ثوابَ المؤمنين المستقيمين! وما أكرمَ نُزُلَهُمْ يومَ الدين! وما أجملَ البشارةَ التي تنزّلَتْ عليهم تحملها الملائكة!.

ذلك أن الاستقامةَ مرتقًى عالٍ صعبٌ، لا يبلغه إلا المؤمنون الأتقياء الذين أخلصوا وجوههم لله، وانخلعوا من ربقة العبودية لغيره، من مال وجاه وسلطان ونعيم ولذاذات وغير ذلك مما تتعلق به قلوب الناس في هذه الحياة. فلا غرو أن يكون ثوابهم عند الله كبيراً، وأن تكون منزلتهم في جواره عالية عالية.

وليس أدلَّ على علوّ منزلة الاستقامة، وصعوبة مرتقاها، من شدّة وقعها على حسّ الرسول اليقظ المرهف البصير بأبعاد الاستقامة وضخامة مدلولها وخطرها في تقرير مصير الإنسان، وذلك فيما رواه ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[2]، قال: «ما نزلَتْ على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آيةٌ كانَتْ أشدَّ ولا أشقَّ عليه مِنْ هذه الآية»[3]، ولذلك قال النبي ﷺ لأصحابه حين قالوا له: قد أسرع إليك الشيب، قال: «شَيَّبَتْني هُودُ وأَخَواتُها»، مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿فاسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ﴾[4].

وقد كان من جوامع كلِمِهِ ﷺ المطابق قولَ الله تبارك وتعالى: ﴿إنّ الّذينَ قالوا رَبُّنا اللّهُ ثُمّ اسْتَقاموا﴾ قَوْلُه لسفيان بن عبد الله الثقفي: «قُلْ آمَنْتُ

---

(١) فصّلت: ٣٠.

(٢) هود: ١١٢.

(٣) رواه مسلم.

(٤) انظر باب جامع أوصاف الإسلام في صحيح مسلم.

بالله ثم اسْتَقِمْ»[١]، وذلك حين سأله قائلاً: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك. وهذا ما حدا بالإمام مسلم أن يسمي باب الاستقامة (باب جامع أوصاف الإسلام)؛ ففي الاستقامة المنبثقة عن الإيمان بالله تتجمّع الفضائل كلها، وتلتقي مكارم الأخلاق، ومن الاستقامة تتشعب خصال الخير، وتتفرع الأعمال الصالحات.

ومن أوليات الاستقامة أن يلقى المسلم الناس بوجه واحد، لا يتلون ولا يتغير، كما يفعل المخاتلون المخادعون، الذين توعّدهم الرسول الكريم بقوله:

«إنَّ شَرَّ النّاسِ ذو الوَجْهَيْنِ، الّذي يَأْتي هؤلاءِ بِوَجْهٍ وهؤلاءِ بوَجْهٍ»[٢].

يَعودُ المَرِيضَ:

والمسلم الحق يعود المريض، ويعدّ عيادته واجباً إسلامياً حضّ عليه الدين الحنيف، وليس تَفضُّلاً أو تطوّعاً منه. إنه ليزور المريض، وملء مشاعره أنه ينفذ أمر رسول الله ﷺ القائلِ:

«أَطْعِموا الجائِعَ، وعُودوا المَريضَ، وفُكُّوا العَاني[٣]»[٤].

والقائلِ أيضاً فيما يروي البراء بن عازب رضي الله عنهما:

«أَمَرَنا رسولُ الله ﷺ بِعِيادَةِ المَريضِ، واتِّباعِ الجَنازَةِ! وتَشْمِيتِ العاطِسِ، وإبْرارِ المُقْسِمِ، ونَصْرِ المَظْلومِ، وإجابَةِ الدّاعي، وإفشاءِ السَّلامِ»[٥].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) أي الأسير.
(٤) رواه البخاري.
(٥) متفق عليه.

ولقد تأصلت هذه العادة الاجتماعية التي أرسى قواعدها الرسول الكريم في حياة المسلمين، حتى أضحت حقاً للمسلم على أخيه، له أن يطالبه به، إن هو غفل عنه أو قصّر فيه، والغافل عن حق أخيه أو المقصّر فيه آثمٌ مفرّط ظالم لنفسه في عرف الشريعة السمحة الغراء:

«حَقُّ المُسْلِم على المُسْلِم خَمْسٌ: رَدُّ السّلامِ، وعِيادَةُ المَريضِ، واتِّباعُ الجَنائِزِ، وإجابَةُ الدَّعْوةِ، وتَشْميتُ العاطِسِ»[1].

وفي رواية قال رسول الله ﷺ:

«حَقُّ المُسْلِم على المُسْلِم خَمْسٌ، قيلَ: وما هِيَ؟ قالَ النبيُّ ﷺ: «إذا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وإذا دَعاكَ فأجِبْهُ، وإذا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وإذا عَطَسَ فحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ، وإذا مَرِضَ فَعُدْهُ، وإذا ماتَ فَاصْحَبْهُ»[2].

والمسلم إذ يعود أخاه المريض يحسّ في أعماقه أنه لا يؤدي واجباً وينفذ أمراً فحسب، بل يحسّ غبطةً روحية ونشوة نفسيه، لا يحسّهما إلا مَنْ تدبَّرَ الحديثَ الشريف الرائع الذي يصوّر جلالة هذه العِيادة، وما تشتمل عليه من خير وبركات:

قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يقولُ يومَ القِيامَةِ: يا بنَ آدَمَ مَرِضْتُ فلمْ تَعُدْني! قالَ: يا رَبِّ كيفَ أعودُكَ وأنت ربُّ العالمينَ؟! قالَ: أما عَلِمْتَ أنَّ عَبْدي فُلاناً مَرِضَ فلَمْ تَعُدْهُ! أما عَلِمْتَ أنَّكَ لَوْعَدْتَهُ لَوَجَدْتَني عِنْدَهُ؟ يا ابنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْني! قَالَ: يا رَبِّ كيفَ أُطْعِمُكَ وأنتَ ربُّ العالمينَ؟! قَالَ: أما عَلِمْتَ أنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدي فُلانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أما عَلِمْتَ أنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذلكَ عِنْدي؟ يا بنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِني!

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

قال: يا رَبِّ كيفَ أَسْقِيكَ وأنتَ رَبُّ العالمينَ؟ قالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدي فلانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ! أما عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذلِكَ عِنْدي؟»[1].

فما أَبْرَكَهَا من عيادة! وما أَجَلَّها من زيارة! وما أَعْظَمَهُ من عمل! يقوم به المرء تجاه أخيه المستضعَف المريض، فإذا هو في حضرة ربّ العزّة، يشهد عمله الجليل، ويثيبه عليه الثواب الجزيل! وهل هناك أجلّ وأعظم وأبرك من زيارة يشرّفها ويباركها ويحضّ عليها ربّ السموات والأرض؟!

وما أكبَرَها من شقوة! تحيق بالمرء المتقاعس عن هذه العيادة، وما أَشَدَّها من خسارة تحل به! وما أبشَعَها من فضيحة يعلنها رب العزة على رؤوس الأشهاد:

يا بْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فلَمْ تَعُدْني!... أما عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدي فُلاناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أما عَلِمْتَ أنّك لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَني عِنْدَهُ؟!

وندع الخيال يتصور مرارة الندم والخيْبَة والخجلة التي تحزّ في نفس هذا المقصّر المتقاعس المعرض عن عيادة أخيه المريض، ولاتَ ساعةَ مَنْدَم.

إن المريض في المجتمع الإسلامي ليحسّ في ساعة الشدّة والكرب أنه ليس وحده، وأن عواطف المعيدين من حوله ودعواتهم تغمره وتخفف من بلواه، وهذه ذروة الرقي الإنساني، وقمة سموّ المشاعر الإنسانية. ولم تعرف أمة في التاريخ هذا الريّ العاطفي، وهذا التجاوب الاجتماعي كما عرفتهما أمة الإسلام.

إن الإنسان المريض في الغرب قد يجد المستشفي الذي يضمه، والطبيب الذي يسعفه ويداويه، ولكنه قلما يجد اللمسة الحانية، والكلمة

---

(١) رواه مسلم.

الشافية، والبسمة المنعشة، والدعوة المخلصة، والمشاركة الوجدانية الصادقة.

ذلك أن الفلسفة المادية التي غشّت حياة الغربيين، أطفأت فيها نورانية العاطفة الإنسانية، وغطّت شفافية الشعور الأخوي، وحجبت الإنسان عن الدوافع غير المادية لفعل الخير.

إن الإنسان الغربي لا يحسُّ أيَّ دافع يدفعه لعيادة المريض، إذا لم تربطه به مصلحة تعود عليه بالنفع المادي العاجل أو الآجل، في حين نجد الإنسان المسلم مندفعاً لعِيادة المريض ابتغاء الثواب الذي أعدّه الله لمن غبّر قدمه في هذا السبيل.

والنصوص في ذلك كثيرة، تفجّر في النفس ينابيع الشعور الأخوي، وتدفع الإنسان لزيارة المريض دفعاً من أعماق الوجدان. ومن هذه النصوص قولُ الرسول ﷺ:

«إنَّ المُسْلِمَ إذا عادَ أخاهُ المُسْلِمَ لَمْ يَزَلْ في خُرْفَةِ الجَنَّةِ[1] حَتَّى يَرْجِعَ»[2] وقولُه:

«ما مِنْ مُسْلِمٍ يَعودُ مُسْلِماً غُدْوَةً[3] إلاّ صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتّى يُمْسي، وإنْ عادَهُ عَشِيَّةً إلاّ صَلَّى عليْهِ سَبْعونَ ألفَ مَلَكٍ حَتى يُصْبِحَ، وكان لَهُ خَرِيفٌ في الجَنَّةِ[4]»[5].

ولقد كان رسول الله ﷺ يدرك ببصيرته النافذة الخبيرة بالنفس الإنسانية

---

(١) أي جناها.

(٢) رواه مسلم.

(٣) أي صباحاً.

(٤) الخريف: الثمر المخْروف، أي المجتَنى.

(٥) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

ما لعيادة المريض من أثر نفسي في المريض وفي آله، ومن هنا كان لا يتوانى في عيادة المرضَى، وإسماعهم أرقَّ عبارات الدعاء والمواساة، حتى إن نفسه الشريفة لَتَسْمو فتقود خَطْوَهُ لعيادة غلام يهودي كان يخدمه، وفي ذلك يقول أنس رضي الله عنه:

«كانَ غُلامٌ يَهودِيٌّ يخدمُ النبيَّ ﷺ، فمرضَ، فأَتاهُ النبيُّ ﷺ يَعودُهُ، فقَعَدَ عندَ رأسِه، فقالَ لَهُ: أَسْلِمْ، فنظَرَ إلى أبيهِ وهوَ عندَهُ، فقالَ: أَطِعْ أبا القاسِم، فأَسْلَمَ، فخرَجَ النبيُّ ﷺ، وهوَ يقولُ: الحمدُ للَّهِ الذي أنقذَهُ مِنَ النّارِ»[1].

لم يفت النبيَّ ﷺ، وهو يعود هذا الغلامَ اليهودي المريض، أن يدعوه للإسلام، إذ كان يدرك وقع زيارته الشريفة في نفس الغلام وأبيه اللّذَيْن غمرهما الرسول بكرمه وفضله ولطفه وحسن تأتّيه، فإذا هما يستجيبان لأمر الرسول الكريم، وإذا العيادة تثمر هداية، ويخرج الرسول الكريم منها ولسانه يلهج بحمد الله أن أنقذ به نفساً من النار، فيا لَلرسولِ الإنسان العظيم! ويا لَلداعيةِ الهادي اللّبق الحكيم!

ومن حفاوة الرسول الكريم بعيادة المريض واهتمامه بشأنها أنه وضع لها أصولاً وسنناً حفظها عنه الصحابة الكرام، وسجّلتها السنَّة المطهّرة.

ومنها الجلوسُ عند رأس المريض كما رأينا في عيادته الغلامَ اليهودي، وكما أخبر بذلك ابن عباس رضي الله عنه بقوله:

«كان النبيُّ ﷺ إذا عادَ المريضَ جَلَسَ عندَ رأْسِهِ، ثمّ قالَ سبعَ مِرارٍ: أسألُ اللَّهَ العظيمَ، ربَّ العَرْشِ العَظيم، أنْ يَشْفِيَكَ»[2].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

ومنها مسحُه جسمَ المريض بيده اليمنى والدعاءُ للمريض، كما تروي السيدة عائشة رضي الله عنها قائلة:

«كانَ النبيُّ ﷺ يَعودُ بعضَ أهْلِهِ فَيَمْسَحُ بيَدِهِ اليُمْنَى ويقولُ: اللّهُمّ ربَّ النّاسِ أذْهِبِ البَأْسَ[1]، اِشْفِ، أنْتَ الشّافي، لا شِفاءَ إلاّ شِفاؤكَ، شِفاءً لا يُغادِرُ سَقَماً»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعوده، وكان إذا دخل على مَنْ يعوده قال:

«لا بأسَ، طَهورٌ[3] إنْ شاءَ اللّهُ»[4].

ولقد تناقلت أجيال المسلمين هذه السنة الحميدة في عيادة المريض، وبقيت في حياة المسلمين الاجتماعية عنواناً على تواصلهم، وتوادّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، وتكافلهم، تجبر كسر المَهيض، وتكفكف عَبْرة المحزون، وتجلو غاشية الكرب، وتقشع سدفة اليأس، وتصل حبل الودّ، وتوثّق عُرَى الأخوّة، وتفجّر نبعة الوفاء، وتطلق بسمة الرجاء.

يَشْهَدُ الجَنَازَة:

والمسلم التقي الواعي يَشْهد الجَنازة في مجتمعه، ويُشَيِّعها، امتِثالاً لأمر رسول الله ﷺ القائل:

«حَقُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلام، وعِيادَةُ المَريضِ، واتِّباعُ الجَنائزِ، وإجابَةُ الدَّعْوَة، وتَشْميتُ العاطِس»[5].

---

(١) أي المرض.
(٢) متفق عليه.
(٣) أي مرضك مُطَهِّر لذنبك.
(٤) رواه البخاري.
(٥) متفق عليه.

ولا يفوته أن ينشر الوعي الإسلامي الصحيح في هذه المناسبة التي تكثر فيها البدع والأضاليل، كسقوط الصلاة، وارتفاع الأصوات بالنِّياحة والنَّدْب والصِّياح، وما إلى ذلك مما ينشغل الناس عن تصحيحه وتبيان وجه الصواب فيه بانصرافهم إلى تجهيز الميت وتشييعه، والتخفيفِ من وقع المصيبة على أهله.

فإذا ما حضر ساعة النَّزْع، وشهدَ المريضَ المشرِفَ على الهلاك يُحْتَضَرُ، لقّنه شهادة أن لا إله إلا الله، عملاً بقول الرسول ﷺ:

«لَقِّنوا مَوْتاكُمْ لا إلَهَ إلاّ اللَّهُ»(١).

فإذا ما أسلم المحتضَرُ روحَه، دعا له بدعاء النبي ﷺ الذي دعا به لأبي سلَمَة رضي الله عنه حين موته، وهو:

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبي سَلَمَةَ، وارْفَعْ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، واخْلُفْهُ في عَقِبِه في الغابِرينَ، واغْفِرْ لَنا ولَهُ يا رَبَّ العالَمِينَ، وافْسَحْ لَهُ في قَبْرِهِ ونَوِّرْ لَهُ فيهِ»(٢).

ثم يردّد على مسامع أهل البيت ما يحفظ من الأحاديث الشريفة التي تهوّن على المصابين مصيبتهم، مبيّناً فضيلةَ احتساب الفقيد عند الله والصبر على موته، وما أعدّه الله للصابرين المحتسبين من ثواب عظيم، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«يقولُ اللَّهُ تَعالى: ما لِعَبْدي المُؤْمِنِ عِنْدي جَزاءٌ إذا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أهْلِ الدُّنْيا ثُمّ آحْتَسَبَهُ(٣) إلاّ الجَنَّة»(٤).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) أي ادخره ورجا ثواب الصبر على موته من الله تعالى.

(٤) رواه البخاري.

ويذكِّر بالموقف الذي يجدر بالمؤمنين أن يقفوه عند الموت، اقتداءً بهَدْي النبي ﷺ كما جاء في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه، قال:

«أَرْسَلَتْ إحْدى بَناتِ النبيِّ ﷺ إلَيْهِ تَدْعُوهُ وتُخْبِرُهُ أنَّ صَبِيّاً لَها ـ أو ابناً ـ في المَوْتِ، فقالَ لِلرَّسول: «ارْجِعْ إلَيْها فأَخْبِرْها أنَّ لله تَعالَى ما أَخَذَ ولَهُ ما أَعْطى، وكلُّ شيْءٍ عِنْدَهُ بأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْها فَلْتَصْبِرْ، ولْتَحْتَسِبْ»[1].

ومما ينبغي للمسلم الواعي فعلُه في مثل هذه المناسبات الأليمة أن ينبّه إلى حرمة النِّياحة والنَّدْب وشقّ الأثواب ولطم الخدود ورفع الأصوات بالكلام المبكي المثير، مبيِّناً للناس، وبخاصة الجهلة منهم أن هذه الأفعال جميعاً تؤذي الميت في قبره، ويأثم فاعلوها إثماً كبيراً، كما خبّر بذلك الرسول ﷺ بقوله:

«المَيِّتُ يُعَذَّبُ في قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ». وفي رواية: «ما نِيحَ عَلَيْهِ»[2].

وقوله:

ليسَ مِنّا مَنْ ضَرَبَ الخُدودَ، أو شَقَّ الجُيوبَ، أو دعا بِدَعْوَى الجاهِلِيَّةِ»[3].

وعن أم عطيّة نُسَيْبَة رضي الله عنها قالت:

«أَخَذَ علَيْنا رسولُ الله ﷺ معَ البَيْعَةِ ألاّ نَنُوحَ»[4].

وقال الرسول ﷺ:

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.
(٤) متفق عليه.

«النَّائِحَةُ إذا لمْ تَتُبْ قبلَ مَوْتِها تُقامُ يومَ القِيامَةِ، وعَلَيْها سِرْبالٌ[١] مِنْ قَطِرانٍ ودِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»[٢].

أما الدموع التي تنهمر من الأعين، تحكي ما يعتلج في القلب من نار الألم واللوعة، فلا تثريبَ على الباكين فيها ما لم يصاحبها نَدْب ونياحة وصياح وما إلى ذلك من أفعال محرمة، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ عاد سعدَ بنَ عُبادة، ومعه عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم، فبكَى رسول الله ﷺ، فلما رأى القومُ بكاء رسول الله ﷺ بكَوْا، فقالَ: «أَلَا تَسْمَعون؟ إنَّ الله لا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَيْنِ، ولا بِحُزْنِ القَلْبِ، ولكنْ يُعَذِّبُ بهَذا أوْ يَرْحَمُ» وأشارَ إلى لِسانِهِ[٣].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رُفِعَ إليه ابنُ ابنتِهِ، وهو في الموت، ففاضَتْ عَيْنا رسول الله ﷺ، فقال سعد: ما هذا يا رسولَ الله؟ قال:

«هذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَها اللَّهُ تَعالَى في قُلوبِ عِبادِهِ، وإنَّما يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبادِهِ الرُّحَماءَ»[٤].

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على ابنه إبراهيم، وهو يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال:

«يا بنَ عَوْفٍ، إنَّها رَحْمَةٌ» ثُمَّ أَتْبَعَها بأُخْرَى، فقالَ: «إنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ،

---

(١) أي قميص.
(٢) رواه مسلم.
(٣) متفق عليه.
(٤) متفق عليه.

والْقَلْبَ يَحْزَنُ، ولا نقولُ إلّا ما يُرْضِي رَبَّنا، وإنّا لِفِراقِكَ يا إبراهيمُ لَمَحْزونُونَ»[١].

ويحرص المسلم التقي على حضور الجنازة حتى تدفن، لما في حضوره من ثواب عظيم، أخبرنا به الرسول الكريم بقوله:

«مَنْ شَهِدَ الجَنازَةَ حتّى يُصَلَّى عليها فَلَهُ قيراطٌ، ومَنْ شَهِدَها حَتّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيراطانِ»، قِيلَ: وما القيراطان؟ قال: «مِثْلُ الجَبَلَيْنِ العَظِيمَيْنِ»[٢].

إن في ترغيب الإسلام بحضور تشييع الميت حتى دفنه توطيداً لأواصر الأخوّة بين المسلمين، وترسيخاً لمشاعر الوفاء، وبمثل هذه المشاركات يجد المصابون جميل الصبر، ويحسّون بَرْدَ العزاء، وبخاصة إذا علموا أن الصفوف المتراصّة التي تقف لتصلّي على ميّتهم ستُشَفَّعُ فيه، كما أخبر بذلك الرسول الكريم بقوله:

«ما مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَموتُ فَيقومُ على جَنازَتِه أَرْبعونَ رَجُلاً لا يُشْرِكونَ بالله شَيْئاً إلّا شَفَّعَهُمُ اللَّهُ فيهِ»[٣].

وينبغي للمسلم أن يكون عالماً بأحكام صلاة الجنازة، حافظاً ما يُقْرَأُ فيها من أدعية مأثورة عن النبي ﷺ، فإذا ما وُضِعَ النَّعْشُ، واصطفّ الناس للصلاة عليه، يكبِّر الإمام التكبيرة الأولى، فيتعوّذُ ويقرأ فاتحة الكتاب، ثم يكبّرُ التكبيرة الثانية، فيصلّي بعدها على النبي ﷺ الصلوات الإبراهيمية، ثم يكبّر التكبيرة الثالثة، ويدعو للميت وللمسلمين. ومن أصحّ الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ للميت ما يرويه عوف بن مالك رضي الله عنه إذ يقول:

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

«صَلَّى رسولُ الله ﷺ على جنازة، فحفظْتُ من دُعائِه، وهو يقولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وارْحَمْهُ، وعافِهِ واعْفُ عَنْهُ، وأَكْرِمْ نُزُلَهُ[١]، ووسِّعْ مُدْخَلَهُ[٢]، واغْسِلْهُ بالماءِ والثَّلْجِ والبَرَدِ[٣]، ونَقِّهِ من الخَطايا كَما نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأبيضَ مِنَ الدَّنَسِ، وأَبْدِلْهُ داراً خَيْراً مِنْ دَارِهِ، وأَهْلاً خَيْراً مِنْ أَهْلِهِ، وزَوْجاً خَيْراً مِنْ زَوْجِهِ، وأَدْخِلْهُ الجَنَّةَ، وأَعِذْهُ مِنْ عَذابِ القَبْرِ ومِنْ عَذابِ النَّارِ» حتّى تمنيتُ أنْ أكونَ أنا ذلك المَيِّتَ»[٤]. ثم يكبّر التكبيرة الرابعة، ويدعو بهذا الدعاء: «اللَّهُمَّ لا تَحْرِمْنا أَجْرَهُ، ولا تَفْتِنّا بَعْدَهُ واغْفِرْ لَنا ولَهُ»، ثم يُسَلِّمُ.

ويمشي في الموكب حتى يُوضَعَ النّعش على القبر، فإذا ما تمّ الدّفن استغفر للميت ودعا له بالتثبيت، وهذا ما كان يفعله الرسول الكريم ويأمر به، كما أخبر بذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ إذا فُرِغَ من دفن الميت وقف عليه، وقال:

«اِسْتَغْفِروا لأَخيكمْ، وسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ، فإنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ»[٥] وعن عَمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «إذا دَفَنْتُموني فأقيموا حولَ قبْري قَدْرَ ما تُنْحَرُ جَزورٌ ويُقَسَّمُ لَحْمُها حتّى أَسْتَأْنِسَ بكم، وأَعْلَمَ ماذا أُراجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبّي»[٦].

وقال الشافعية: «ويُسْتَحبُّ أَنْ يُقْرَأَ عندَهُ شَيْءٌ مِنَ القُرْآنِ، وإنْ خَتَموا القُرْآنَ كانَ أَفْضَلَ»[٧].

---

(١) أي منزله في الجنة.

(٢) أي قبره.

(٣) الغرض تعميم أنواع الرحمة والمغفرة في مقابلة أصناف المعصية والغفلة.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه أبو داود بإسناد حسن.

(٦) رواه مسلم.

(٧) انظر: المجموع للنووي ٥/ ٢٥٤.

إن مشاركة المسلم في مثل هذه المناسبات دليل على إدراكه الحياة الاجتماعية بأبعادها كافة؛ فليست الحياة أفراحاً ومناسباتٍ سعيدةً فحسب، وإنما هي فرحٌ وتَرَحٌ، سرور وحزن، طرَب وكرْب، رخاء وشدّة، بسمَة ودمعة، والمسلم الحق الواعي له مكانُه في هذا كله، لا يغيب عن جانب منه؛ إذ له في كل جانب رسالةٌ يؤديها، وكلمةٌ يقولها، وواجبٌ يقوم به.

يُكَافِئُ عَلَىٰ الْمَعْرُوفِ وَيَشْكُرُ عَلَيْهِ:

ومن خلائق المسلم الطيبة وشمائله الرفيعة أنه يكافىء على المعروف فلا يجحده، ويشكر عليه ولا ينساه؛ عملاً بقول الرسول ﷺ:

«مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْروفٌ فقالَ لِفَاعِلِهِ: جَزاكَ اللَّهُ خيراً، فقد أَبْلغَ في الثَّنَاءِ»(١).

وقوله:

«مَنِ اسْتَعاذَ باللَّهِ فأَعيذُوهُ... ومَنْ أَتَى إِلَيْكُمْ مَعْروفاً فكافِئُوهُ»(٢).

فالشكر على المعروف في خليقة المسلم دينٌ حَضَّ عليه الهَدْيُ النبوي الكريم، وليس مجاملة اجتماعية تتحكّم فيها الأمزجة والأهواء، وتدفع إليها المنافع والمصالح، وتتذبذب بمدى تحقّق تلك المنافع والمصالح.

فصاحب المعروف يستحق الشكر عليه، وإن لم تتحقق تلك المنافع والمصالح على يديه، فحسْبُه أنه أقبل على فعل المعروف، فاستحق كلمة الشكر النابعة من القلب، وهذا ما يريده الإسلام من المسلمين.

ولقد بلغ من حرص الإسلام على تأصيل هذه الخليقة في نفس المسلم أنه جعل شكر الله لا يتمّ، ولا يتحقّق على وجهه الأكمل إلا بشكر الناس على ما قدّموه من معروف، وما أسدته أيديهم من خير. فالذي لم يألف شكر الناس

(١) حديث حسن جيد غريب، رواه الترمذي.

(٢) رواه أبو داود والنسائي وأحمد. وإسناده صحيح.

على معروفهم، ولا تندّ عنه عبارة تثلج صدور صانعي المعروف، وتهزّ فيهم المروءة، وتحرك الأريحية، هو إنسان جحود كنود كفور، لا يقدّر النّعم والفضائل ولا يشكر عليها، فهو غير مؤهل لشكر الله تعالى، واهب النعم والفضائل والخيرات. وفي هذا يقول رسول الله ﷺ:

«لا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النّاسَ»[1].

ذلك أن في شكر من أسدى إليك معروفاً إشاعةً لفعل الخير، وتشجيعاً عليه، وترغيباً فيه، وفيه أيضاً تعويدٌ للإنسان على حفظ اليد، وتقدير المعروف، والاعتراف بالجميل، وبهذا وذاك تتوطد أواصر المودّة بين أفراد المجتمع، وتنفتح القلوب على الحب، وتنشط النفوس لفعل الخير، وهذا ما يهدف الإسلام إلى ترسيخه في المجتمع الإسلامي.

يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ:

والمسلم الحق العامل يخالط الناس ويصبر على أذاهم؛ لأنه صاحب قضية، ورائد رسالة، ولسان دعوة. ولا بد لمَنْ تصدّى لهذه المهمات الجسام من أن يوطّن نفسه على التضحية في سبيل تلك القضية، والصبر على تكاليف الرسالة، وتحمل تبعات الدعوة، ومنها الصبر على آراء الناس الفجّة، وسوء تصرفاتهم، وخطَل ظنونهم وتصوراتهم، وجفاء طبعهم، وبطء استجابتهم للحق، وتثاقلهم إلى الأرض، والدوران حول المصلحة والذات، إلى غير ذلك مما يبدر من البشر من تفاهات يضيق بها الدعاة ذرعاً، فإذا هم يميلون في لحظات السأم والضيق والإعياء إلى الانزواء واعتزال الناس، ومن هنا جاء الهَدْي النبوي العالي يشدّ من عزمات المؤمنين، ويربط على قلوبهم، ويثبّت

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

منهم الأقدام، فيعلن أن الصابرين في درب الدعوة الشائك الطويل خير من الذي لا يصبرون:

«المؤمِنُ الّذي يُخَالِطُ النّاسَ ويَصْبِرُ علَى أَذاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الّذي لا يُخالِطُ الناسَ ولا يَصْبِرُ علَى أَذاهُمْ»[1].

ولقد كان رسول الله ﷺ والأنبياء من قبله آية في الصبر على رعونات الناس وتخرّصاتهم وتفاهاتهم، ما أحوجَ الدعاةَ إلى الوقوف عندها كلما نفد صبرهم، وضاقت صدورهم، وبرّح بهم الأذى والعدوان.

ومن نماذج ذلك الصبر الكبير ما رواه الشيخان من أن النبي ﷺ قسم قِسْمَةً كبعض ما كان يقسم، فقال رجل من الأنصار: واللَّهِ إنّها لَقِسْمَةٌ ما أُريدَ بها وجهُ الله عَزّ وجَلّ. وبلغَتْ تلك القالةُ الظالمةُ مسامعَ الرسول الكريم فشقّ ذلك عليه، وتغيّر وجهُه، وغضب، ثم قال: «قَد أُوذِيَ مُوسَى بأكثَرَ مِنْ ذلكَ فَصَبَرَ».

بهذه الكلمات القليلة سكت عن الرسول الكريم الغضب، وانقشع الغيظ، وهدأت النفسُ الكريمةُ السَّمْحَةُ الصَّفوحُ.

إنه خلق الأنبياء والدعاة الصادقين في كل زمان ومكان، وهو الصبر على أذى الناس وتخرّصاتهم وأقاويلهم، وبدونه لا تستمر دعوة، ولا يثبت دعاة.

ولا تنقص المسلمَ الواعيَ الحصيفَ اللباقةُ في تألّف الناس ومداراتهم واتقاء شرّهم وفحشهم، إن كانوا من السفهاء؛ فالمؤمن كَيِّسٌ فطِن في مخالطته الناسَ، ذكيٌّ لبِق في مخاطبتهم، لا يحسّون منه جفوة، ولا يلمسون فظاظة أو غلظة، وهذا ما جاء به الهَدْي النبوي الكريم فيما يرويه الإمام البخاري عن السيدة عائشة من أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ، فقال:

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

«ائذَنو لَهُ فبِئْسَ ابنُ العَشِيرَةِ، أو بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ». فلمّا دَخَلَ أَلانَ لَـهُ الكلامَ، فقلتُ لَهُ: يا رسولَ اللَّهِ قلتَ ما قلتَ ثمّ أَلَنْتَ لهُ في القَوْلِ! فقالَ: «أيْ عائِشةُ: إنَّ مِنْ شَرِّ النّاسِ مَنْزِلَةً عندَ اللَّهِ مَنْ تَرَكَـهُ، أَوْ وَدَعَهُ النّـاسُ اتِّقاءَ فُحْشِهِ».

وكان أبو الدَّرْداء يقول:

«إنّا لَنَكْشِرُ في وُجُوهِ أَقْوامٍ، وإنَّ قلوبَنا لَتَلْعَنُهُمْ»[1].

إن أنماط الناس لا تكون دوماً على مزاج الداعية وميوله ورغباته، بل إن فيهم كثيراً ممن يكون على النقيض مما يحب ويرغب، ومن هنا لا بد للداعية من أن يعتصم بـالصبـر على مـا يلقى من هؤلاء، ولا بـد لـه من اللبـاقـة في معاملتهم واستمالتهم إلى الحق الذي يدعوهم إليه.

يُدْخِلُ السُّرُورَ عَلَىٰ القُلُوبِ:

والمسلم الواعي المستنير بهَدْي دينه يحرص على أن ينشر المسرّة في الربوع التي يحلّها، ويشيع بين أهلها الأنس والمودّة والغبطة؛ فإدخـال السرور على القلوب في إطار ما أحـلّ الله مطلب إسـلامي ندب إليـه الشرع الحنيف، ورغّب في فعله، لتكون بيئات الإسلام وأجواء المسلمين متـرعة بـالودّ، نـديّة بأنسام المسرّة، عامرة بالبِشْر والتفاؤل، ومن أجل ذلك جعل الإسلامُ جزاءَ مَنْ يُـدْخِل السـرور على قلوب المسلمين أن يظفـر بسرور أكبـر، يدخله الله جـل جلاله على قلبه يوم القيامة:

«مَنْ لَقِيَ أَخـاهُ المُسْلِمَ بما يُحِبُّ اللَّهُ لِيَسُـرَّهُ بذلـك، سَرَّهُ اللَّهُ عَـزَّ وجَلَّ يومَ القِيامَةِ»[2].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الطبراني في الصغير وإسناده حسن.

وكم من المسرّات الحلال يستطيع المسلم أن يحملها لإخوانه، كالكلمة الطيبة، والبَسْمة الوَدود، والبُشْرى المفرحة، والمواساة المسلّية، والزيارة الخالصة، والرِّفْد الصادق، وغير ذلك مما يفتح القلوب على المحبة، ويحجبها عن الغلّ والحقد والكراهية.

ومن هنا كان المسلم بطبيعة تربيته وتكوينه يدور في إطار من الأعمال الصالحات التي تقربه من الله زُلْفَى، وتحبّبه إلى قلوب الناس.

يَدُلُّ عَلَىٰ الخَيْرِ:

ومن تلك الأعمال الصالحات التي عُرِف بها المسلم الصادق التقي الدّلالةُ على الخير، فهو لا يزوي خيراً عن أحد، ولا يكتم أمراً فيه للناس منفعة، لأنه تعلّم من هَدْي دينه أن الذي يدلّ على الخير لهُ مثلُ أجرِ فاعِلِه:

«مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فاعِلِهِ»[1].

ومن هنا كان المسلم بعيداً عن احتجان الخير لنفسه، سِيّانِ لديه أقام هو به أمْ دلَّ عليه؛ فأجرُه ثابتٌ في الحالين، وفي ذلك إشاعة للخير في المجتمع، ليقوم به كلُّ من يُسِّرَ له، بعيداً عن التباهي والتفاخر وحب الظهور.

وكم حجبَتْ هذه الآفاتُ النفسية القاتلة الخيرَ عن المجتمعات؛ لأن أصحابها يودّون أن يقوموا هم دون سواهم بفعل الخير، ولكن ظروفهم لا تمكنهم من القيام به، فيبقى الخيرُ مَوْءُوداً، والمصالحُ معطّلةً، والمجتمعاتُ محرومةً من ذلك الخير الذي دار في بعض الرؤوس فكتَمتْه وسكتَتْ عنه انتظاراً لفرصة تسنح تمكّنهم من تنفيذه، وقد لا تسنح هذه الفرصة، وينتهي العمر، ويبقى الخيرُ حبيسَ الرؤوس المظلمة. والمسلم

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

الحق المتطلّع إلى رضوان ربه ومثوبته بريءٌ من هذه الآفات، يدلّ على الخير فَوْرَ عِلْمِهِ به، ويحظى بثواب ربه كفاعل الخير سواء.

مُيَسِّرٌ غَيْرُ مُعَسِّرٍ:

والمسلم التقي الـواعي ميسِّـر لا يعـرف التعسيـر؛ لأنّ خلق المؤمنين التيسير في الأمور كلها، وهذا ما ارتضاه الله تبارك وتعالى لعباده إذ قال:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[1].

ومن هنا جاء الهَدْي النبوي الكريم حاضّاً المسلمين على التيسير، ناهياً إياهم عن التعسير:

«عَلِّموا ويَسِّروا ولا تُعَسِّروا، وإذا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ»[2].

إنـه لا يلجأ للتعسيـر وتعقيد الأمـور إلا مَنْ كان في خلقـه التـواء، وفي طبعـه كزازة، وفي تـربيتـه نقص وخلل. أمـا الإنسـان السـويّ المؤدَّب بـأدب الإسلام، فلا يعـرف التعسير، ولا يـألف التعقيد، ولا يلجـأ إلى عرقلة الأمـور وتعطيل المصالح، مستهدياً بخلق الرسول الكريم الذي أخبرت به أم المؤمنين السيدة عائشة قائلة:

«مـا خُيِّرَ رسـولُ اللَّهِ ﷺ بينَ أَمْرَيْن قَطُّ إلّا اخْتـارَ أَيْسَـرَهُمـا مـا لَمْ يَكُنْ إثْماً، فإنْ كانَ إثْماً كانَ أبعدَ النّاسِ مِنْهُ، ومـا انْتَقَمَ رسولُ اللَّهِ ﷺ لنَفْسِـه في شيْءٍ قَطُّ إلّا أنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ للَّهِ تَعالَى»[3].

إنهـا النظرة النبـوية العـاليـة الحصيفـة الخبيـرة بضعف النـاس وتفـاوت استعداداتهم للصعود والارتقاء والصبر، فما كان يناسبهم شيْء كالتيسير، ولا

---

(١) البقرة: ١٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٣) متفق عليه.

يؤذيهم وينفّرهم شيء كالتعسير، ومن هنا اختار الهَدْي النبوي الكريم التيسير في إطار العمل المشروع الحلال، وجعله سنة في المسلمين، لتخلو حياتهم من جفاف التعسير وعنته وثقله على النفوس.

عَادِلٌ فِي حُكْمِهِ:

والمسلم الواعي الراشد عادل في حكمه، لا يجور ولا يَحيد عن الحق، مهما كانت المناسبات والمواقف والأحوال؛ فالعدل واجتناب الظلم من صميم دينه وعقيدته، نطقت بهما النصوص القاطعة من قرآن كريم وحديث شريف، وأمرت بهما أمراً لا مجال للترخّص أو الاجتهاد فيه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾[1].

والعدل الذي عرفه الفرد المسلم والمجتمع الإسلامي عَدْلٌ مجرَّد دقيق خالص، لا يميل ميزانه الودّ أو الشّنآن[2]، ولا يؤثر في نصاعته ميل إلى قرابة أو نسب:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3].

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[4].

لقد ضرب رسول الله ﷺ المثل الأعلى في العدل حينما جاء أسامة بن

---

(١) النساء: ٥٨.

(٢) أي البغض.

(٣) المائدة: ٨.

(٤) الأنعام: ١٥٢.

زيد يستشفع في المرأة المخزومية التي سرقت، وعزم رسول الله ﷺ على قطع يدها، فقال له: «أَتَشْفَعُ في حَدٍّ من حُدودِ اللَّهِ؟ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فاطِمَةَ بنتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَها»(١).

إنه العدل العام المطلق الذي يُطَبَّق على الكبير والصغير، والأمير والسُّوقَة، والمسلم وغير المسلم، ولا يفلت من قبضته أحد، وهذا مفرق الطريق بين العدل في المجتمع الإسلامي وغيره من المجتمعات.

ومما وعاه التاريخ، وأنصَتَتْ له بإجلال محافلُ العدل في العالم كله عبر القرون وَقْفَةُ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بجانب خصمه اليهودي الذي سرق درعه أمام القاضي شُرَيْح، الذي لم يمنعه إكباره وإجلاله لأمير المؤمنين أن يطلب منه البَيِّنَة على سرقة اليهودي درعَه. ولما لم يجد أميرُ المؤمنين البيِّنَة حكم القاضي لليهودي على أمير المؤمنين. والتاريخ الإسلامي حافل بأمثال هذه الأخبار الدالة على سيادة الحق والعدل في المجتمع الإسلامي.

ومن هنا كان المسلم الحق عادلاً في أقواله وأفعاله؛ لأن الحقَّ قديمٌ في تراثه، والعدلَ عريقٌ في مجتمعه، والإنصافَ مقدَّسٌ في معتَقَده.

لا يَظْلِمُ:

والمسلم الحق بقدر استمساكه بالعدل هو بعيد عن الظلم؛ إذ الظُّلْمُ ظُلُماتٌ يتخبَّط بها الظالمون، كما بيّن الهَدْيُ النبوي الكريم:

«اِتَّقُوا الظُّلْمَ، فإنَّ الظُّلْمَ ظُلُماتٌ يَوْمَ القِيامَةِ...»(٢).

وما أجملَ النهيَ عن الظلم في هذا الحديث القدسي، الذي يأتي فيه

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم.

أمرُ الله القاطع بتحريمه تحريماً لا مجال للتأويل أو الاجتهاد فيه:

«يا عِبادي إنّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسي، وجَعَلْتُهُ بينَكُمْ مُحَرَّماً، فلا تَظالَموا»[١].

فالظلم شيء حرّمه الله على نفسه، وهو الخالِقُ الملكُ القدوسُ العزيزُ الجبّارُ المتكبِّرُ، سبحانَه، وجعله محرَّماً بين العباد. أفَيَسوغُ بعد ذلك أن يقع الظلمُ من مسلم مستمسك بعروة دينه الوثقى؟.

إن المسلم الحق لا يكون منه ظلم مهما كانت الأسباب والدواعي والظروف، وهذا ما أكدّه الرسول ﷺ إذ أخبر عن صفات المسلم الحق بقوله:

«المُسْلِمُ أَخو المُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، ولا يُسْلِمُهُ[٢]، ومَنْ كانَ في حَاجَةِ أَخيهِ كانَ اللَّهُ في حاجَتِه، ومَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُباتِ يومِ القِيامَةِ، ومَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ يومَ القِيامَةِ»[٣].

لم يكتفِ رسول الله ﷺ بنفي الظلم عن المسلم الحق حتى إنه لا يتصور أن يقع منه البتّة، بل نفى عنه خذلانه لأخيه أيضاً، وفي خذلانه إياه ظلمٌ له وأي ظلم، ورغّبه بعد ذلك في قضاء حاجة أخيه، وتفريج كربته، وستره، وكأنه يشير إلى أن التقاعس عن هذه الفضائل ظلمٌ وتقصير وإجحاف في حق الأخوّة التي تربط بين المسلم وأخيه.

ولقد رأينا النصوص في الفقرة السابقة تحضّ على العدل المطلق الذي لا يميل ميزانه حبّ أو بغض أو ميل أو قرابة أو نسب، ورأينا النصوص في هذه الفقرة تنهى عن الظلم المطلق أيضاً، وهذا يعني تطبيق العدل على كل

---

(١) رواه مسلم.

(٢) أي لا يخذله.

(٣) رواه البخاري.

إنسان، واجتناب الظلم لكل إنسان، ولو كان من غير المسلمين؛ فالله تعالى يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الظلم والإساءة لكل الناس:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1].

يُحِبُّ مَعَالِي الأُمُورِ:

والمسلم الحق يتوخى في علاقاته الاجتماعية دوماً معالي الأمور، ولا يبني تلك العلاقات على أساس من الأغراض السخيفة والمصالح الخسيسة، إذ لا وقت لديه لِسَفْساف الأمور وصغير الأهداف وتوافه الأغراض، وهو بحكم تكوينه على هَدْيٍ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يحب الجدّ ويكره الهزل، ويميل إلى السموّ والارتقاء وينفر من الهبوط والانحدار، وهذا ما يحبه الله تبارك وتعالى من أخلاق الرجال، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ بقوله:

«إنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ كَريمٌ يُحِبُّ الكُرَماءَ، ويُحِبُّ مَعالي الأُمورِ ويَكْرَهُ سَفْسافَها»[2].

لا يَتنَطَّعُ في كَلَامِهِ:

ومن هنا كان المسلم الواعي بعيداً عن التَّنَطُّع في كلامه[3]، لا يتكلّف النطق حباً بالتظاهر ولفت الأنظار إلى شخصه، فالتنطّع والثرثرة الفارغة ليسا من خلق المسلم العامل الذي يحب معالي الأمور ويكره سفسافها، وإنما هما من خلق الإنسان الفارغ التافه الذي لا يهمه إلا الظهورُ والبروزُ وجذبُ الانتباه إليه، ولذلك اشتدّ رسول الله ﷺ على المتنطّعين، واشتدّ عليهم من بعده

---

(١) الممتحنة: ٨.

(٢) رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

(٣) المتنطّع: المتعمّق في الكلام المتكلم بأقصى حلقه.

صاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، حتى إن عبد الله بن مسعود يقول:

«والّـذي لا إلَـهَ إلاّ هُـوَ مـا رَأَيْتُ أَحَـداً كـانَ أَشَـدَّ على المُتَنَـطِّعِينَ مِنْ رسـولِ اللَّهِ ﷺ، ولا رَأَيْتُ أَحَـداً أَشَـدَّ علَيْهِمْ مِنْ بَعْـدِهِ مِنْ أبـي بَكْـرٍ، وإنّي لَأَظُنُّ عُمَرَ كانَ أَشَدَّ أَهْلِ الأَرْضِ خَوْفاً عَلَيْهِمْ، أَوْلَهُمْ»[1].

لا يَشْمَتُ بِأَحَدٍ:

والمسلم الحق بعيد أيضاً عن الشماتة والزّراية بـالآخرين، لأن الشمـاتة خلقٌ وضيعٌ مؤذٍ جارحٌ، نهى عنه الإسلام، وحذّر من الوقـوع فيه، وذلـك في الحديث الشريف القائل:

«لا تُظْهِرِ الشَّماتَةَ لِأَخِيكَ، فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ ويَبْتَلِيَكَ»[2].

إنه لا مكان للشمـاتة في نفس المسلم الحق الـذي أُشْرِبَتْ نفسُـه روحَ الإسـلام وهَدْيَـه، بل إن نفس المسلم لتحـدب على المبتَلى وتـرثي لحـالـه، وتسارع إلى التخفيف عنه، وكلها عطف عليه وألم لمصابه. وما تظهر الشمـاتة إلا في النفوس المريضة البعيدة عن روح الإسلام وهَدْيـه، والمنشّأة على حب الانتقام والكَيْد والتربّص والوقيعة والأذى.

كَرِيـمٌ جَـوادٌ:

والمسلم الحق المستنيـر بتعاليم دينـه، القائم بتـطبيقهـا على نفسـه في صدق وإخلاص كريمٌ جوادٌ، يداه مبسوطتان، تَهْمِيان بـالخير[3] الشرّ على أبناء مجتمعه، في شتى المناسبات والأحوال.

---

(١) رواه أبو يعلى والطبراني ورجالهما ثقات.

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(٣) أي تمطران.

وهو، إذ ينفق، يبذل بسخاء المؤمن الواثق بأن عطاياه لا تضيع، إذ هي محفوظة لدى عليم خبير:

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾(١).

وإنه ليؤمن أيضاً، وهو يجود بماله، أن ما ينفقه سيعود عليه بالفائدة الجمّة والخير العميم، وسيخلفه الله عليه أضعافاً مضاعفة في الدنيا والآخرة:

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾(٣).

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾(٤).

إن المسلم الصادق لَيُنفِقُ ماله، وهو على يقين أن الله تبارك وتعالى سيعوضه عما أنفقه من ماله في هذه الدنيا بركةً ونَماءً وخَلَفاً، وإذا ما غلبه شحُّ نفسه وأمسك يده عن العطاء والبذل فسيبتليه ربه بماله نقصاناً وضياعاً وتلفاً، وهذا ما صوره الحديث الشريف أوضح تصوير:

«ما مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبادُ فيهِ إلّا مَلَكانِ يَنْزِلانِ، فيقولُ أَحَدُهُما: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، ويقولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً»(٥).

وفي الحديث القدسي:

---

(١) البقرة: ٢٧٣.
(٢) البقرة: ٢٦١.
(٣) سبأ: ٣٩.
(٤) البقرة: ٢٧٢.
(٥) متفق عليه.

«أَنْفِقْ يابْنَ آدَمَ يُنْفَقْ عَلَيْكَ»[١].

ولا يخالج نفسَ المسلم الواثق بربه شكٌّ أن ما ينفقه في سبيل الله لا ينقص من ماله شيئاً؛ فالصدقة تنمّي المال ولا تنقصه:

«ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مالٍ...»[٢].

أما ثوابه على ما أنفق ابتغاء وجه ربه، فيجلّ عن الوصف والتقدير بمضاعفة الله إياه أضعافاً مضاعفة، ولهذا كان رسول الله ﷺ يعدّ المال الباقي حقيقةً هو ما أُنْفِقَ في سبيل الله، وذلك في الحديث الذي ترويه السيدة عائشة عن ذبحهم شاةً، فقال النبي ﷺ: «ما بَقِيَ مِنْها؟» قالت: ما بَقِيَ إلاّ كَتِفُها، قال: «بَقِيَ كُلُّها غيرَ كَتِفِها»[٣].

لقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على تأصيل فضيلة الكرم في نفوس المسلمين، وجعْلِها من الفضائل التي يتسابق المسلمون إلى التحلّي بها والتنافس فيها، يشهد لذلك قولُه:

«لا حَسَدَ إلاّ في اثْنَتَيْنِ: رجُلٌ آتاهُ اللَّهُ مالاً فَسَلَّطَهُ على هَلَكَتِهِ[٤] في الحَقِّ، ورجُلٌ آتاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فهُوَ يَقْضي بِها ويُعَلِّمُها»[٥].

لقد سَوَّى الرسول الكريم بين هَلَكَتِه المالَ في الحق وبين الحكمة والقضاء بها وتعليمها، إذ قال: لا حَسَدَ، أي لا غبطةَ إلا في إحدى هاتين الخصلتين، لما في البذل في سبيل الحق من وقع كبير ونفع بالغ في حياة المسلمين الاجتماعية؛ فالمال عصب الحياة الحسّاس، وهَلَكَتُهُ في سبيل

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، ومعناه: أنها بقيتْ لنا في الآخرة إلاّ كتفها.

(٤) أي إنفاقه.

(٥) متفق عليه.

الحق عمل عظيم، لا يقلّ عن عبقرية ذي الحكمة الموهوب، ونفعِها للناس.

ومن هنا كان المسلم الواعي بصيراً في التصرف بماله بما يعود عليه بالخير والمثوبة والأجر، ولذلك تراه يقدّمه للبذل الذي يضمن له المثوبة والأجر، دونما جور على ورثته بحرمانهم منه. ومن غير تقتير وإمساك عن البذل في وجوه الخير، وقوام ذلك كلّه الاعتدال والتوسط في الحالتين على هَدْي من الشريعة ومقاصدها الغراء، بحيث لا يكون توريثُ الثروة للأبناء أحبَّ للرجل من البذل في سبيل الله، بل يكون المال المبذول في سبيل الله أحبَّ إليه من المال المورَّث؛ لأن الأول هو ماله الباقي في صحيفة عمله، وهذا ما أرشد إليه الرسول ﷺ بقوله:

«أَيُّكُمْ مالُ وارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مالِهِ؟ قالوا: يا رسولَ الله، ما مِنّا أَحَدٌ إلا مالُهُ أحبُّ إِلَيْهِ. قالَ: فإنَّ مالَهُ ما قَدَّمَ[1]، ومالَ وارِثِهِ ما أَخَّرَ»[2].

إن الكرم من أفضل خلائق الإسلام ومن أحسن شمائل المسلم الاجتماعية، ومن هنا كان جواب الرسول الكريم للرجل الذي جاءه سائلاً: أيُّ الإِسْلامِ خيرٌ: «تُطْعِمُ الطَّعامَ، وتَقْرَأُ السَّلامَ على مَنْ عَرَفْتَ ومَنْ لَمْ تَعْرِفْ»[3].

على أن الكرم ما ينبغي أن يجمح بالمسلم إلى حد التفريط والإطاحة بالمال كله، بحيث لا يبقى منه شيء لورثته؛ فالأمور في الإسلام متوازنة متكاملة، لا يجور بعضها على بعض، فكما أن البذل في وجوه الخير واجب أو فريضة، كذلك حفظ الذُّرِّية وصون كرامتهم من الابتذال والتكفف فريضة أو واجب؛ فقد سأل سعد بن أبي وقاص النبي ﷺ إذ جاء يعوده في مرضه

---

(١) أي في وجوه الخير.

(٢) رواه البخاري.

(٣) متفق عليه.

الـذي أشفى منه على المـوت، فقال: يـا رسول الله إن لي مـالاً كثيراً، وليس يَرِثُني إلا ابْنَتي، أفَأَتَصَـدَّقُ بِثُلُثَيْ مالي؟ قـال: لا، قال: فـالشَّطْر؟ قـال: لا، قـال: الثُّلُث؟ قـال: «الثُّلُث، والثُّلُثُ كثيـرٌ» ثم عقَّبَ النبـي ﷺ على ذلـك بقوله: «إنَّكَ إنْ تَرَكْتَ وَلَدَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أنْ تَتْرُكَهُمْ عـالَةً يَتَكَفَّفـونَ النّاسَ، وإنكَ لنْ تُنفِقَ نَفَقَةً إلا أُجِرْتَ عَلَيْها، حتّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُها إلى في امْرَأَتِكَ»[1].

ولقـد كان الـرسول الكـريم ﷺ مثالاً مجسَّـداً للكـرم المحض الأصيـل ما عرف عنه أنه أمسك يده عن عطاء، ولا ردّ سائلاً تعرّض لـه بسؤال، يحكي ذلك عنه الصحابـي جابر رضي الله عنه فيقول:

«ما سُئِلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئاً قَطُّ، فَقالَ: لا»[2].

كان صلوات الله عليه يدرك ما للمال من أثر في نفـوس البشر. فيتخـذه وسيلة لتأليف القلوب واستمالتها للإسـلام، ولا يستكثر أن يبـذل الكثير الكثيـر في سبيل كسب جديد إلى صف الدعوة، وإنه ليعلم أن هـذا الذي تـطَلّع إلى المال أول الأمر، سيأخذه الإسلام متى دخل في غمار هَدْيـه، فيجعله من أشدّ الناس إيمانـاً، ومن أحسنهم إسلامـاً، وهذا مـا يحدثنـا به الصحـابـي الجليل أنس بن مالك إذ يقول:

«ما سُئِلَ رسولُ الله ﷺ على الإسلام شَيْئـاً إلا أَعْطاهُ، ولَقَـدْ جاءَهُ رجـلٌ فأَعْطاهُ غَنَماً بينَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إلى قَوْمِـهِ فقالَ: يـا قوم أَسْلِمـوا! فإنّ مُحَمَّـداً يُعْطي عَطاءَ مَنْ لا يَخشى الفَقْرَ. وإنْ كان الرجلُ لَيُسْلِمُ ما يُريدُ إلا الدُّنيا، فما يَلْبَثُ إلا يَسيراً حتّى يكونَ الإسلامُ أحبَّ إليْهِ مِنَ الدُّنْيا وما عَلَيْها»[3].

---

(١) رواه البخاري وغيره.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

من هنا كان رسول الله ﷺ يبذل كل ما تصل إليه يده، فيوزعه على الناس، لا يدّخر منه شيئاً لنفسه، ولا لآله. حَسْبُه أن يردّ الخير على مستحقّيه، يفتح به مغاليق القلوب الصّلْدة، ويؤصل في النفوس خليقة الكرم، بِضَرْبِهِ المثلَ الأعلى فيه؛ فعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه قال: بينما هو يسير مع النبي ﷺ مَقْفَلَهُ من حُنَيْن[1]، فَعلِقه الأعراب يسألونه حتى اضطرّوه إلى سَمُرَة[2] فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: «أَعْطُوني رِدائي، فلَوْ كانَ لي عَدَدُ هذه العِضاهِ[3] نَعَماً لَقَسَمْتُهُ بينَكمْ، ثُمَّ لا تَجدُوني بَخيلاً ولا كَذّاباً ولا جَباناً»[4].

إن هذا النمط العالي من الكرم الذي كان عليه رسول الله ﷺ لهو المثل الأعلى للكرم الخالص البعيد عن الغايات والمطامع والشبهات، حقّقه الرسول الكريم في واقع الحياة، ليكون مثالاً للإنسانية، تحاول الارتفاع إليه، وإنه ليؤكد استعداد الإنسان للصعود في مدارجه، وقدرته على بلوغ مستويات رفيعة فيه، متى تألقت حقيقة الإيمان الكبرى في نفسه، ومن هنا يزداد الإنسان كرماً كلما ازداد من الله قرباً. وكلما استشعر ما أعدّه الله من نعيم للكرماء الأسخياء الباذلين في سبيله ازداد سخاء وبذلاً، وكلما قويت صلته بالله ازداد شعوره بثمرات الكرم عمقاً، وزاد عطاؤه امتداداً وسعة. وهذا ما كان عليه رسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل في رمضان، فقد كانت نسبة الكرم في حياة الرسول الكريم ترتفع في هذا الشهر المبارك، بفعل هذه الصلة المتكررة بالملأ الأعلى؛ إذ كان يلقاه جبريل في كل ليلة من ليالي رمضان، فيترع نفسَه

---

(١) أي حين رجوعه منها.

(٢) أي شجرة.

(٣) العِضاه: شجر له شوك.

(٤) رواه البخاري.

الشريفة بمعاني الخير، ويزيدها فضلاً على فضل، وسماحةً على سماحة، وجوداً على جود.

فعن ابن عباس قال: «كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ أجودَ النّاسِ بالخَيْرِ، وكانَ أجودَ ما يكونُ في رَمضانَ حينَ يَلْقاهُ جِبْريلُ، وكانَ جبْريلُ يَلْقاهُ في كُلِّ لَيْلَةٍ من رَمضان، يَعْرِضُ عليهِ رسولُ الله القرآنَ فإذا لَقِيَهُ جبْريلُ كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ أجودَ بالخيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَة»[1].

ولا عجب أن نجد في الجيل الأول من ارتفع إلى قريب من هذا المستوى العالي من الجود، فإذا هو يجود بماله كله في سبيل الله كما فعل أبو بكر رضي الله عنه، ومَنْ يجود بنصف ماله كما فعل عمر رضي الله عنه، ومَنْ يجهز جيشاً بأكمله كما فعل عثمان رضي الله عنه، ومَنْ يتبرع بأنفس ممتلكاته كما فعل أبو الدحداح الذي وهب أحسن بساتينه صدقة في سبيل الله، ولما علمت زوجه بصنعه قالت له متهلّلة الوجه مفترّة الأسارير: ربح البيع يا أبا الدحداح، وغير هؤلاء الأجواد كثير ممن آثروا الآجلة على العاجلة، فنزلوا عن أموالهم وحظوظ أنفسهم في سبيل الله.

ذلك أنهم كانوا صادقين مع الله عز وجل، دائمي الصلة به، ومن هنا كانوا يحققون هذه المعاني، فيترجمونها إلى واقع، ولا يكتفون بترددها والتغني بها والتأثّر بذكرها، كما نجد معظم أغنياء اليوم.

إن من أغنياء اليوم مَنْ يملك من الملايين والمليارات ما لو أدّى زكاتها فحسب لَمَسَح الفقر من مجتمعه مَسْحاً، بلْهَ[2] الإنفاقَ السخيَّ من حرّ ماله، ولكن أيدي هؤلاء الأغنياء تنقبض حتى عن دفع الزكاة وإنهم ليعلمون أنها

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) أي دع.

فريضة وركن من أركان الإسلام، فتراهم يوزعون، إن وزعوا، دريهمات معدودة في المواسم والأعياد، أو يوزعون الخبز والأطعمة في بعض الأقطار الإسلامية على عدد محدود من الفقراء، وعندما يرى الناس البسطاء جماهير الفقراء تقف ببابهم لتأخذ حظها من هذا الفُتات الذي يوزَّع، يشيدون بكرمهم وسخائهم، ويعدّونهم من الأجواد الفضلاء، وما درى هؤلاء البسطاء أن مجموع ما يوزعه أصحاب الملايين هؤلاء لا يبلغ جزءاً يسيراً جداً مما يتوجب عليهم إنفاقه، وأن هؤلاء الذين ينثرون على الفقراء المسحوقين دراهم معدودة، ذرّاً للرماد في العيون، وتظاهراً بالطاعة لله والبذل في سبيله، لا يخفى أمرهم على رب العالمين، رب الفقراء والأغنياء، ولن يفلتوا من عقابه، وأنهم يدخلون تحت قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[1].

إن هذه الفئة التي أثْرَتْ في ظل نظام اقتصادي غير إسلامي، كانت سبباً من الأسباب التي جلبت الأنظمة والمبادىء اليسارية إلى بلاد المسلمين، بجشعها واستغلالها وشحّها وبُعْدها عن هَدْي الله، ولو عرفت حق الله في مالها، وأدّته كاملاً غير منقوص، لما وُجِد في مجتمعات المسلمين من يجرؤ على الدعوة إلى شيوعية حمراء أو اشتراكية رقشاء، ولما نَبَتَ الحقد الطبقي الذي استغلته الأحزاب اليسارية، حتى أقامت عليه أنظمة حكم اشتراكية أطاحت بأصحاب الملايين وبمعاملهم ومؤسساتهم، واستلبت منهم الملايين، فأصبحت خزائنهم خاوية، وكانوا في أيام البَسْطة والعز والسعة والرخاء والربح يضنّون في كثير من الأحيان على العامل الفقير بنصف ليرة يضيفونها إلى

---

(١) التوبة: ٣٤ ــ ٣٥.

أجرته الأسبوعية أو الشهرية الزهيدة، خشية أن تنقص أرباحهم، بل كان بعضهم يقيم الدنيا ويقعدها من أجل هذه الزيادة البسيطة، ويتعامى عن الآلاف المؤلفة التي يبذّرها بعض أبنائهم في الملاهي، وتحت أقدام المومسات، حتى إن بعضهم كان يغلق الملهى بأكمله على حسابه ليستمتع وحده بالحسناوات الراقصات فيه.

إن المجتمع الإسلامي السليم لا يعرف ظلم الغني للفقير، ولا حقد الفقير على الغني؛ لأن الغني فيه كريم جواد يعرف حق الفقير في ماله، فلا يبخسه حقه، ولا يتقاعس عن إسعافه ورفده ومعونته وإنصافه؛ ولأن الفقير لا ينظر إلى الغني بعين الحقد والضغينة والكراهية لأنه أكثر منه مالاً؛ ذلك أن الغني في المجتمع الإسلامي لا يجمع ماله من حرام، وإنما يجمعه بكدّه وكدحه واجتهاده وجَهْده من طريق الكسب الحلال المشروع، ثم إن مبدأ تكافؤ الفرص الذي أتاحه المجتمع الإسلامي لجميع المستظلّين بظلّه لَيُفْسحُ المجال للفقير أن يعمل ويكدح ليصبح بدوره غنياً إن شاء، فالباب مفتوح للجميع، لِيَلِجَهُ كل طَموح نشيط وثّاب العزيمة عالي الهمة، ولا داعيَ للحقد والضغينة والتربّص وحب الانتقام، ولا مكانَ للحاقدين المضطغنين المتربصين للانتقام في مجتمع الحب والتآخي، مجتمع الإسلام.

لقد كان رسول الله ﷺ يعلّم الصحابة الكرام، ويحضّهم دوماً على البذل، ويقتلع من نفوسهم حب الكنز، لتتوزّع الثروة بين الناس، ويشيع الرخاء في حياتهم، ولئلا يرتد المال المكنوز على صاحبه شؤماً وعذاباً وسخطاً يوم القيامة، وكان الرسول الكريم الأسوة الحسنة لهم في ذلك والمثل الأعلى.

انطلق يوماً إلى البقيع ولحِقَ به أبو ذرّ، وفي أثناء مسيرتهما قال لأبي ذر:

«إنَّ المُكْثِرينَ هُمُ المُقِلُّونَ يومَ القِيَامَةِ، إلاّ مَنْ قالَ هكذا وهكذا في حَقِّ»، ثم عَرَضَ لهما أُحُدٌ، فقالَ النبي ﷺ: «يا أبا ذر»، فأجابه: لبَّيْكَ رسولَ الله وسَعْدَيْكَ وأنا فداؤُكَ، قالَ: «ما يَسُرُّني أنَّ أُحُداً لآلِ مُحَمَّدٍ ذَهَباً، فيُمْسي عندَهُمْ دينارٌ، أو قالَ، مِثْقالٌ. . . .»[1].

وهذا ما يفسّر موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أغنياء قريش حينما استراحوا من عناء الفتوح، وأقبلوا على التجارة يثمّرون بها أموالهم، فأثْرَوْا ثراءً فزع عليهم منه عمر فقال:

«ألا إنَّ قُرَيْشاً يُريدون أن يَجْعَلوا مالَ اللَّهِ دُولَةً بينَهمْ، أما وابنُ الخَطّابِ حَيٌّ، فلا، ألا وإنّي واقِفٌ لهُمْ في حَرَّةِ المَدينةِ، فآخِذٌ بحُجُزاتِهِمْ أن يَتهافَتُوا في النّار»[2].

إن تجميع الثروة في أيد قليلة أمر يرفضه الإسلام؛ لأن تجميعها في تلك الأيدي القليلة معناه انحسارها عن الأيدي الكثيرة في المجتمع، وهنا يكون الاختلال، وتكون الطبقية، ويكون الاستغلال، ويكون الظلم، وهذا كله حرام في مجتمع الإسلام.

هذه واحدة، والثانية أن عمر بن الخطاب أعلن أنه سيقف لهم في حرّة المدينة ليأخذ على أيديهم، ويحول بينهم وبين الاحتكار والكنز، إنقاذاً لهم أن يتهافتوا في النار، لا انتقاماً منهم وحسداً على ما في أيديهم، كما توسوس به النظم المادّية التي تُذْكي في نفوس الفقراء الحقد والضغينة وحب الانتقام من الأغنياء؛ فالعدالة الاجتماعية مقصودة في الإسلام لخير الغني والفقير سواء، ومنذ بداية الطريق، قبل أن تتفاقم الأمور، وتختل الموازين، وتمتلىء بالحقد الصدور، وهي مقصودة أيضاً لأن فيها صلاح دنيا الغني

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) انظر: أخبار عمر للطنطاويين: ٢٦٥.

والفقير وآخرتهما أيضاً، ولن تجد هذا الربط المحكم بين الدنيا والآخرة في عالم الاقتصاد، إلا في النظام الاقتصادي في الإسلام.

والمسلم الحق كريم مهما كان فقيراً، ومهما كان عطاؤه قليلاً، فحسْبُ الإسلام منه أن تنبجس في نفسه عاطفة الرحمة بمن هو أفقر منه، ويحسّ ما يعانيه غيره من ألم وحرمان. ومن أجل ذلك جاءت النصوص تحضّ الفقراء على الإنفاق القليل، حسب استطاعتهم، لتبقى نفوسهم ريّا بنداوة المشاركة الوجدانية لإخوانهم، ووَعَدَ الله هؤلاء المنفقين، على إقلالهم وعسرتهم، بتثمير صدقتهم وتنميتها حتى تصبح كالطود الشامخ، شريطة أن تكون من كسب حلال:

«مَنْ تَصَدَّقَ بعَدْلِ تَمْرَةٍ[1] مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، ولا يَقْبَلُ اللَّهُ إلاّ الطَّيِّبَ، فإنَّ اللَّهَ يَقْبَلُها بيَمينِهِ، ثُمّ يُرَبّيها لِصاحِبِها كما يُرَبّي أحدُكُمْ فُلُوَّهُ[2]، حتى تكونَ مثلَ الجَبَلِ»[3].

ولكيلا تنغلق النفوس، وتحتجب عن المشاركة الوجدانية في المجتمع، ولكيلا تجف ينابيع الخير والرحمة والتعاطف فيها، دعاها الرسول الكريم إلى الإنفاق اليسير مهما كانت مقلّة معسرة، وحذّرها من السلبية والانغلاق والإمساك، لأن في ذلك مَهْلَكَةً وبواراً وعَذاباً، فقال:

«اتَّقوا النّارَ ولَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»[4].

لقد أراد الله للمسلم أن يكون عنصر بناء ومنفعة وخير في مجتمعه، يفيض دوماً بخيره على الناس، سواءٌ أكان غنياً أم فقيراً، ومن هنا جاء الهَدْي

---

(١) أي بقيمتها.

(٢) أي مهره.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه البخاري.

النبوي حاضّاً الإنسانَ المسلمَ على فعل الخير، حسَب قدرته وإمكاناته، وجعل له في كل فعل للخير صدقة:

«على كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، فقالوا: يا نَبِيَّ اللَّهِ، فَمنْ لَمْ يَجِدْ؟ قالَ: يَعْمَلُ بِيَدِهِ، فَيَنْفعُ نفسَهُ ويَتصَدَّقُ. قالوا: فإنْ لَمْ يَجِدْ؟ قالَ: يُعِينُ ذا الحاجَةِ المَلْهُوفَ. قالوا: فإنْ لَمْ يَجِدْ؟ قالَ: فَلْيَعْمَلْ بالمَعْروفِ، ويُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ، فإنَّ لَهُ صَدَقَةً»[1].

لقد وسَّعَ الإسلام دائرة الخير، لِيَلِجَها كل مسلم، فلا يحسّ الفقير المعدم أنه محروم من المشاركة الاجتماعية الخيّرة، لصَفَر يده[2] من المال، ففتح له أبواب هذه المشاركة، بجعل كل عمل نافع يقوم به صدقة له، يثاب عليها كما يثاب الغني على إنفاقه: «كُلُّ مَعْروفٍ صَدَقَةٌ»[3].

وبذلك ضمن مشاركة جميع الأفراد في بناء المجتمع وخدمته وتحسينه، وأدخل على قلوب أبنائه جميعاً الراحة والسرور والابتهاج بهذه المشاركة التي تردّ للإنسان اعتباره وتحفظ كرامته وتحقق مثوبته.

ولقد كان الإسلام واقعياً رحيماً بالمسلمين؛ إذ لم يكلفهم ما لا يطيقون، ولم يطلب منهم إلا أن يبذلوا فضول أموالهم، ولم يَلُمْ ذوي الكفاف، وآثر لهم أن يَكْفُوا حاجتهم بأنفسهم؛ إذ اليد العليا في الإسلام خير من اليد السفلى، أما ما زاد عن الحاجة فهو داخل في باب المنافسة في الكرم، والمسلم الحق لا يمسك في وجه من وجوه الخير؛ لأنه تعلّم من هَدْي دينه أن في بذله خيراً، وفي إمساكه شراً:

---

(١) متفق عليه.
(٢) أي لخلوّها.
(٣) متفق عليه.

«يـا بْنَ آدَمَ إنَّكَ إنْ تَبْـذُلِ الفَضْلَ[١] خَيْـرٌ لَكَ، وإنْ تُمْسِكْـهُ شَرٌّ لَـكَ، ولا تُـلامُ على كَفـافٍ[٢]، وابْـدَأْ بِمَنْ تعـولُ، واليـدُ العُلْيـا خَيْـرٌ مِنَ اليَـدِ السُّفْلَى»[٣].

ولا يفـارق المسلمَ الواعيَ البصيـرَ كرمُـه وإقبالـهُ على الصدقـةِ متى زاد شيء في يده عن حاجته وحاجة عيالـه، ولو كـان هذا الشيء بمثـابة احتيـاطيّ يدّخره النـاس ضمانـاً من الفقر، أو وسيلة للعـروج في مدارج الغِنَى، بـل إنه ليرى في هَدْي دينه أن صدقته في مثل هذه الحالـة هي أعلى أنواع الصـدقات طُرّاً، وأفضلها أجراً، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرةَ، قال:

«جـاءَ رجلٌ إلى رسـولِ الله ﷺ، فقـالَ: يـا رسـولَ اللّهِ، أيُّ الصَّـدَقَـةِ أفْضَـلُ أجْراً؟ قـالَ: «أنْ تَصَدَّقَ وأنْتَ صَحيـحٌ شحيحٌ تَخْشَى الفَقْـرَ، وتَـأْمـلُ الغِنَى. ولا تُمْهِلْ حتّى إذا بَلَغَتِ الحُلْقومَ قُلْتَ لِفُـلانٍ كذا ولِفُـلانٍ كذا، وقَـدْ كانَ لِفُلانٍ»[٤].

والمسلم الحق الجواد يخصّ بعطائـه وكرمـه الفئات التي تستحق الـرفد والغوث والإعانة، فيتحرّى أولئك العُفاةَ والمحـرومين من المساكين المتعفّفين الذين لا يسألون الناس إلحافاً، ويحسبهم النـاسُ أغنياءَ من التعفّف، فيـذهب إليهم، ويطرق أبوابهم، ويَحْبوهم ما يسدّ حاجتهم ويحفظ كرامتهم.

ذلـك أن هؤلاء المساكين المتعفّفين هم أولى النـاس بالـرفـد والعـطاء، وهم الذين عناهم الرسول الكريم بقوله:

---

(١) أي ما زاد عن حاجتك وحاجة عيالك.

(٢) أي إمساك ما تكفّ به الحاجة.

(٣) رواه مسلم.

(٤) متفق عليه.

«ليسَ المِسْكِينُ الّذي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ والتَّمْرتانِ، ولا اللُّقْمَةُ واللُّقْمَتانِ، إنَّما المِسْكِينُ الّذي يَتَعَفَّفُ»[١].

وفي رواية في الصحيحين:

«ليس المِسْكِينُ الّذي يَطُوفُ علَى النّاس تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ واللُّقْمَتانِ، والتَّمْرَةُ والتَّمرَتانِ، ولكنَّ المِسْكِينَ الّذي لا يَجدُ غِنىً يُغْنِيهِ، ولا يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، ولا يَقومُ فَيَسْأَلُ النّاسَ».

ويخص المسلمُ السمحُ الجوادُ بعطائه اليتيمَ، فيكفُلُه إن استطاع، فيقوم بالنفقة عليه، والعناية بشؤونه، سواءٌ أكان هذا اليتيم قريباً له أم بعيداً، محتسباً ما ينفقه في هذا السبيل عند الله الذي أعدّ لكافل اليتيم مقاماً عليّاً، تتقطّع دونه الأعناق، وتصغر الأماني الحفّل المعسولة، بِمَنْحِهِ شرفَ جوار الرسول الكريم في الجنة، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أنا وكافِلُ اليَتيمِ[٢] في الجَنَّةِ هكَذا» وأشار بالسَّبَّابَةِ والوُسْطى، وفَرَّجَ بينَهما شيئاً[٣].

وكذلك يسعى المسلم التقي المحسن السخي على الأرملة والمسكين، امتثالاً لهَدْي دينه القويم، وابتغاءَ مرضاة ربه، وسعياً وراء المثوبة الكبرى التي أجزلها الله تعالى للساعي على الأرملة والمسكين، حتى إنها لتفوق أجر الصائم القائم، أو المجاهد في سبيل الله، كما أخبر بذلك الرسول الكريم بقوله:

---

(١) متفق عليه.

(٢) أي القائم بأموره.

(٣) متفق عليه.

«السَّاعِي على الأَرْمَلَةِ والمِسْكِينِ كالمجاهِدِ في سَبِيلِ الله» وأَحْسَبُهُ قالَ: «وكالْقائِمِ لا يَفْتُرُ، وكالصَّائِمِ لا يُفْطِرُ»(١).

هذه هي طرق البرّ التي يسلكها المسلم المنفق الجواد، يبتغي بها مرضاة ربه ومثوبتَه، وهذه هي الأعمال الصالحات التي تقرّب العبد من ربه زُلْفَى، لا تلك الولائم التي تقام للأغنياء والوجهاء، وتراق في إقامتها الأموال الطائلة، طمعاً في شهرة أو وجاهة أو كَسْبٍ موقوت؛ فتلك ولائم ذمّها رسول الله ﷺ، لأنه لم يُرَدْ بها وجهُ الله تعالى، وذلك في قوله:

«بِئْسَ الطَّعَامُ طعامُ الوليمَةِ، يُدْعَى إليْها الأَغْنياءُ ويُتْرَكُ الفُقَراءُ»(٢).

ثم إن السعي على الأرملة والمسكين، وتكفّلَ اليتيم والإحسانَ إليه، فضلاً على ما فيهما من ثواب عظيم، ليُزَكِّيان نفس المعطي، وينميّان إنسانيته، ويرقّقان قلبه، ويجعلانه يتذوق حلاوة العطاء، ويلتذ بشعور الحنان، ويسعد بفعل الخير. ومن هنا كانَ الرسول الكريم يروض القلوب القاسية على الإحسان لتُخَالِطَها رِقَّةٌ، ويُخالِجَها عطفٌ وندًى وحنان. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قَسْوَةَ قلبه، فقال:

«اِمْسَحْ رَأْسَ اليَتيمِ، وأَطْعِمِ المِسْكِينَ»(٣).

لا يَمُنُّ على مَنْ يُعْطِيهِمْ:

والمسلم التقي الواعي إذا وفقه الله للعطاء والبذل في سبيله، لا يمن على مَنْ أعطاهم، ويحرص على أن يكون مِمَّنْ قال الله تعالى فيهم:

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(١).

ولا يخفى عليه أن لا شيءَ أحبط للعمل وأبطل لثواب الصدقة من المنّ والأذى، بل إن نداء الله تبارك وتعالى للمؤمنين بالنهي والتحذير من المنّ الذي يبطل الصدقات ويطيح بالحسنات لَيَمْلأ سمعه، ويهزُّ كيانه، ويصرفه عن التفكير بالمنِّ أو الأذى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾(٢).

إن المنّ على الإنسان الفقير الذي ألجأته الحاجة إلى الأخذ إهانةٌ لإنسانيته، وامتهانٌ لكرامته، وحطٌّ من قدره. وهذا كله محرَّم في شرعة الإسلام التي تعدّ المعطي والآخذ أخوَيْن، لا فرقَ بينهما إلا بالتقوى والعمل الصالح، والأخ لا يمنّ على أخيه، ولا يؤذيه في نفسه وكرامته. ومن هنا اشتد الوعيد للمنّان في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي ذر، إذ صنّفه رسول الله ﷺ في زمرة الأشقياء الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم، فقال:

ثلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيامَةِ، ولا يَنْظُرُ إلَيْهِمْ، ولا يُزَكِّيهِمْ، ولَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ، قَرَأَها رسولُ اللَّهِ ﷺ ثلاثَ مَرّاتٍ، قال أبو ذَرّ: خَابُوا وخَسِروا، مَنْ هُمْ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: «المُسْبِلُ(٣)، والمَنَّانُ، والمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بالْحَلِفِ الكاذِبِ».

---

(١) البقرة: ٢٦٢.

(٢) البقرة: ٢٦٤.

(٣) أي المُسْبِلُ إزاره وثوبه أسفلَ من الكَعْبين لِلْخُيَلاء.

مِضْيافٌ:

وبدَهيٌّ أن المسلم الحق الذي أُشْرِبَتْ رُوحُه معاني الكرم مِضْيافٌ، يهِشّ لاستقبال الضيف، ويسارع إلى إكرامه، مستجيباً إلى خليقة الإسلام الأصيلة في نفسه، المنبثقة من الإيمان بالله واليوم الآخر:

«مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»(١).

فمكرم الضيف يؤكد بإكرامه ضَيفَه أنه مؤمن بالله واليوم الآخر، ومن هنا سُمِّيَ هذا الإكرام جائزةً، تُقدَّم للضيف، وكأنها شكر له على ما أتاح للمضيف من عمل صالح، يحقق به إيمانه ويرضي ربه:

«مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جائِزَتَهُ»، قالوا: وما جائِزَتُهُ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: «يَوْمُهُ ولَيْلَتُهُ، والضِيافَةُ ثَلاثَةُ أيامٍ، فما كانَ وراءَ ذلكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ»(٢).

إن إكرام الضيف في الإسلام عمل عزيز محبَّب للمسلم الصادق، يثاب عليه، وقد نظّمه الإسلام ووضع له حدوداً، فجائزة الضيف يوم وليلة، ثم يأتي واجب الضيافة، ومدته ثلاثة أيام، وما زاد على ذلك فهو صدقة تُثْبَتُ في صحيفة الرجل الكريم المضياف.

وليس إكرام الضيف في الإسلام أمراً اختيارياً يتبع الأمزجة والنفسيات والاجتهادات الشخصية، وإنما هو واجب على المسلم، عليه أن يبادر إلى تأديته إذا ما قرع بابه طارق، أو نزل بفنائه ضيف:

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

«لَيْلَةُ الضَّيْفِ حَقٌّ واجِبٌ على كُلِّ مُسْلِمٍ، فَمَنْ أَصْبَحَ بِفِنائِهِ فَهُوَ دَيْنٌ عَلَيْهِ فإنْ شاءَ اقْتَضاهُ، وإنْ شاءَ تَرَكَهُ»(١).

أما الذين يضيقون ذرعاً باستقبال الضيف، ويغلقون دونه الأبواب، فلا خَيرَ فيهم، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن النبي ﷺ.

«لا خَيْرَ فيمَنْ لا يُضيفُ»(٢).

لقد جعل الإسلام الضيافة واجبة على كل مسلم، وعدّها حقاً مفروضاً للضيف، لا ينبغي أن يقصّر في أدائه مسلم، فإن استحكم شحّ النفوس في قوم، وبلغ بهم أن يمنعوا الضيف حقه، فإن الإسلام أذن للضيف أن يأخذ حقه منهم، وذلك في الحديث الذي رواه الشيخان وغيرهما عن عقبة بن عامر، قال: قلت: يا رسول الله، إنك تبعثُنا فننزل بقوم فلا يَقْرونا، فما ترى في ذلك؟ فقال:

«إنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأُمِرَ لكُمْ بما يَنْبَغي لِلضَّيْفِ فاقْبَلوا، فإنْ لَمْ يَفْعَلوا فَخُذوا منْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الّذي يَنْبَغي لَهُمْ».

إن الضيافة خلق إسلامي أصيل، ومن هنا لا تجد مسلماً حَسُنَ إسلامُه بخيلاً ممسكاً عن الضيف، مهما كانت حاله؛ ذلك أن الإسلام علّمه أن طعام الاثنين يكفي الثلاثة، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة، وأن لا خوفَ البتّة من طروق الضيف المفاجيء؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«طَعامُ الاثْنَيْنِ، كافي الثَّلاثَةِ، وطَعامُ الثّلاثَةِ كافي الأَرْبَعَةِ»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٢) رواه الإمام أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٣) متفق عليه.

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول:

«طعامُ الواحد يَكْفي الاثْنَين، وطَعامُ الاثْنَيْن يَكْفي الأَرْبَعَةَ، وطَعامُ الأَرْبَعَةِ يَكْفي الثَّمانِيَةَ»[1].

إن المسلم الحق لا يخاف كثرة الأيدي على الطعام، شأن الإنسان الغربي الذي لا يستقبل ضيفاً مفاجئاً لم يعدّ له طعاماً من قبل، بل إن المسلم ليستقبل ضيفه المفاجيء، ويرحّب في مشاركته طعامَه، وما عليه إن نقص حظّ معدته لقيمات معدودات؛ لأن الجوع أهون عند المسلم الحق من الإعراض عن الضيف الذي أمر الله ورسوله بإكرامه، بل إن الله ليبارك في طعام الواحد فإذا هو يكفي الاثْنَيْن ويبارك في طعام الاثنين فإذا هو يكفي الأربعة، وهكذا... ولا داعي لذلك الجفاف المقيت الذي مُنِيَ به الإنسان الغربيُّ، ربيبُ المدنيّة المادية في الشرق والغرب سواء.

ولقد ضرب سلفنا الصالح المثل الأعلى في إكرام الضيف، حتى إن الله تبارك وتعالى عجب من صنيع بعضهم في إكرام الضيف، ونجد ذلك في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فبعث إلى نسائه، فقلن: ما عندنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: مَنْ يَضُمُّ (أو يُضيفُ) هذا؟ فقالَ رجلٌ من الأَنْصار: أنا، فَانْطَلَقَ بهِ إلى امْرَأَتِهِ فقالَ: أَكْرِمي ضَيْفَ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فقالَتْ: ما عِنْدَنا إلاّ قُوتُ الصِّبْيانِ، فقالَ: هَيِّئي طَعامَكِ، وأَصْلِحي سِراجَكِ، ونَوِّمي صِبْيانَكِ إذا أَرادُوا عَشاءً، فَهَيَّأَتْ طعامَها، وأَصْلَحَتْ سَراجَها، ونَوَّمَتْ صِبْيانَها، ثُمْ قامَتْ كأَنَّها تُصْلِحُ سِراجَها فَأَطْفَأَتْهُ، وجَعَلا يُريانِهِ أَنَّهُما يَأْكُلانِ، وباتا طاوِيَيْنِ. فلَمّا أَصْبَحَ غَدا إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكما

---

(١) رواه مسلم.

بضَيْفِكُما اللَّيْلَةَ، وأَنْزَلَ اللَّهُ تعالَى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

على أن المسلم الحق كيِّس فَطِن، إذَا نزل ضيفاً على أخيه فإنه يقدّر ظروفه، فلا يقيم عنده مسترخياً متثاقلاً غيرَ عابىء بما يسبب لمضيفه من إحراج وإثقال وإزعاج قد يبلغ به درجة التذمر والضيق، بل إنه ليجد في هَدْي الرسول الكريم ما يحرّم عليه هذا الإثقالَ البشع الذي تأباه روح الإسلام، وذلك في الحديث الذي رواه مسلم عن النبي ﷺ:

«لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ، أَنْ يُقِيمَ عِنْدَ أَخيهِ حَتّى يُؤْثِمَهُ[2]»، قالوا: يا رسولَ اللَّهِ!، وكَيْفَ يُؤْثِمُهُ؟ قالَ: «يُقيمُ عندَهُ ولا شَيْءَ لَهُ يَقْرِيهِ بِهِ».

وفي رواية للبخاري:

«ولا يَحِلُّ لَهُ أنْ يَثْوِيَ عندَهُ حَتّى يُحْرِجَهُ».

وأيّاً كان الإثم أو الإحراج، فالمسلم الحق بعيد عن إيقاع أخيه المضيف فيهما.

والضيف المسلم مؤدَّب، علّمه الإسلام أدب الضيافة وسلوكها الرصين الراشد، ومن هنا هو يتحرَّى الدقّة في تطبيق هذا السلوك، بحيث يكون خفيف الظلّ على مضيفيه، دمِثاً في الاستجابة لما يحبون أو يبدون من ملاحظات ورغبات.

---

(١) الحشر: ٩.

(٢) أي إلى أن يوقعه في الإثم.

يُؤْثِرُ على نَفْسِهِ:

والمسلم الحق الذي ارتوت نفسه من مناهل الإسلام يؤثر على نفسه، ولو كان مقلًّا به خصاصة[١]؛ ذلك أن الإسلام طبع أبناءه بما ساقه لهم من هَدْي على الإيثار، حتى أصبح الإيثار خليقة أصيلة من خلائق المسلم الحق، بها يُعْرَف ويتميز عن غيره من الناس.

ولقد كان الأنصار رضوان الله عليهم الرُّوّادَ الأوائل للإيثار بعد الرسول الكريم، إذ نزل فيهم قرآن يُتْلَى، يشيد بإيثارهم الفريد على وجه الزمان، الذي جعلهم منارة خالدة للأجيال الإنسانية، تُعَلِّمُها كيف يكون الجود، وكيف يكون الإيثار، وذلك حين استقبلوا إخوانهم المهاجرين الذين لا يملكون شيئاً، فأعطوهم كل شيء[٢]:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٣].

ولقد كانت حياة النبي ﷺ حافلة بالإيثار، وبذلك أصّله في نفوس المسلمين الأوائل، وركّزه في طبائعهم وعاداتهم؛ فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ بِبُرْدَةٍ مَنْسوجَة، فقالَتْ نَسَجْتُها بِيَدَيَّ لِأَكْسُوكَهَا، فَأَخَذَها النبيُّ ﷺ مُحْتاجاً إليها، فخرجَ إلينا وإنّها إزارُه، فقالَ فُلانٌ: اكْسُنِيها، ما أَحْسَنَها! فقال: «نَعَمْ»، فجلَسَ النبيُّ ﷺ في المجلِس، ثُمّ رجَعَ فطَواها. ثم أرسلَ بها إليه. فقال له القوم: ما أَحْسَنْتَ! لَبِسَها

---

(١) أي فقر.

(٢) انظر إيثار الأنصار ص: ١٦٨.

(٣) الحشر: ٩.

النبيُّ ﷺ مُحْتاجاً إليها، ثم سألتَه وعلمتَ أنهُ لا يَرُدُّ سائِلاً، فقال: إنّي واللَّهِ ما سألتُه لِأَلْبَسَها، إنّما سَأَلْتُهُ لِتَكونَ كَفَني. قال سهلٌ: فكانَتْ كَفَنَهُ»[1].

وكم كانَ صلوات الله عليه يطيب نفساً إذ يرى ثمرات غرسه في الإيثار تُؤْتي أُكُلَها في حياة المسلمين، إذا ما دعا إليه داع من جدب أو إقلال، فيعبر عن ذلك بقوله:

«إنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إذا أَرْمَلُوا في الْغَزْوِ أو قَلَّ طَعامُ عِيالِهِمْ بالمَدِينَةِ جَمَعوا ما كانَ عندَهمْ في ثَوْبٍ واحِدٍ، ثُمّ اقْتَسَموهُ بينَهمْ في إناءٍ واحِدٍ بالسَّوِيَّة، فهُمْ مِنّي وأنا مِنْهُمْ»[2].

يُنَفِّسُ عَنِ الْمُعْسِرِ:

والمسلم الحق سمح، حسن المعاملة، رضيّ الخلق، يبادر إلى التنفيس عن المعسر، عملاً بقوله تعالى:

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾[3].

ذلك أن الإسلام يريد من المسلم أن يكون إنساناً قبل أن يكون صاحب حق، فإذا ما آنس من أخيه المدين عُسْرَة مطبقة عليه، عَذَرَهُ، وقدّر الضيق الذي هو فيه، وأَنْظَره إلى أجل آخر، أو وضع عنه من الدين. وهو إذ يفعل ذلك إنما يمتثل أمر ربه، ويقدم بين يديه عملاً صالحاً ينجيه من كرب يوم القيامة، ويظلّه بظلّ العرش العظيم يوم لا ظلّ إلا ظلّه:

عن أبي قتادة رضي اللَّهُ عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ:

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

(٣) البقرة: ٢٨٠.

«مَنْ سَرَّهُ أنْ يُنَجِّيَهُ اللَّهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ، فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ[١] أوْ يَضَعْ عَنْهُ[٢]»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أنْظَرَ مُعْسِراً، أوْ وَضَعَ لَهُ، أظَلَّهُ اللَّهُ يومَ القِيَامَةِ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّهُ»[٤].

ولقد ورد في هذا الموضوع نصوص كثيرة، وكلها تؤكد أن تنازل الدائن للمدين لا يضيع عند الله، وإنما سيكون ذلك في صحيفته، وسيعوضه الله الكريم الوهاب بتجاوزه عن دين أخيه تجاوزاً أكبَرَ وأغنَمَ وأعظَمَ، يجبر التقصير، ويقيل من الزلل، وينجي من الهول، يوم يقوم الناس لرب العالمين:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كان رجلٌ يُدايِنُ النّاسَ، وكان يقولُ لِفَتاهُ: إذا أتيتَ مُعْسِراً فتجاوَزْ عَنْهُ، لَعَلَّ اللَّهَ أنْ يَتجاوَزَ عَنّا، فَلَقِيَ اللَّهَ فَتجاوَزَ عنهُ»[٥].

وعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «حُوسِبَ رجلٌ مِمّنْ كانَ قبلَكمْ، فلَمْ يُوجَدْ لَهُ مِنَ الخَيْرِ شَيْءٌ إلاّ أنّهُ كانَ يُخَالِطُ النّاسَ[٦]، وكانَ مُوسِراً، وكانَ يَأْمُرُ غِلْمَانَهُ أنْ يَتجاوَزوا عَنِ المُعْسِرِ. قالَ اللَّهُ عَزّ وجَلّ: «نحنُ أَحَقُّ بذلكَ مِنْهُ، تَجاوَزُوا عَنْهُ»[٧].

---

(١) أي يفرّج عنه كربه بتأخير دفع الدين إن كان دائناً، أو بدفع الدين عنه.

(٢) أي من الدين.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(٥) متفق عليه.

(٦) أي يعاملهم بالبيوع والمداينة.

(٧) رواه مسلم.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: أُتِيَ اللَّهُ بِعَبْدٍ من عِبادِهِ آتاهُ اللَّهُ مالاً، فقالَ لَهُ: ماذا عَمِلْتَ في الدُّنْيا؟ قالَ: ــ ولا يكْتُمونَ اللَّهَ حَدِيثاً ــ قالَ: يا ربِّ آتَيْتَنِي مالَكَ، فكنتُ أُبايعُ النّاسَ، وكانَ مِنْ خُلُقِي الجَوازُ، فكنتُ أَتَيَسَّرُ على المُوسِر، وأُنْظِرُ المُعْسِرَ، فقالَ اللَّهُ تَعالى: «أَنا أَحَقُّ بِذا مِنْكَ، تَجاوَزوا عَنْ عَبْدي»، فقالَ عُقْبَةُ بنُ عامِر، وأبو مَسْعود الأَنصاريُّ رضيَ اللَّهُ عَنْهما: «هكذا سَمِعْناه مِنْ في رَسُولِ الله ﷺ»[1].

عَفِيفٌ لا يَتَطَلَّعُ إِلَىٰ المَسْأَلَةِ:

على أن المسلم الحق عفيف مستغن، لا يتطلّع إلى المسألة، إذا ألمّ به ضيقٌ تذرع بالصبر، وضاعف من الجهد، وحرص على ألّا يقف موقف المستعطي المستجدي المستدرّ أكفَّ المحسنين؛ ذلك أن هَدْي هذا الدين يربأ بالمسلم أن يضع نفسه في هذا الموقف، ويُهِيبُ به أن يستعفّ ويستغني ويصبر، وسيعينه الله ويهبه الغنى والصبر والعفاف:

«مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، ومَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، ومَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وما أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطاءً هُوَ خيراً وأوسعَ مِنَ الصَّبْرِ»[2].

إن الإسلام الذي جعل في أموال الأغنياء حقاً للفقراء، يتقاضونه بغير منّة ولا أذى ولا غضاضة، أراد للفقراء في الوقت نفسه أن يستغنوا عن هذا الحق، وأعلن أن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأن على المسلم الحق أن يعمل دوماً على ألا تكون يده السفلى؛ ذلك أجدر به وأليق وأكرم، وفي ذلك دفع للمقلّين أن يضاعفوا من جهودهم، وألّا يتّكلوا على الصدقة والعطاء، وفيه حفظٌ لماء وجوههم، وصون لكراماتهم، أن تتعرض يوماً لأذى، ومن هنا

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

كـان رسول الله ﷺ يعلن من على المنبـر، وهو يـذكـر الصـدقـة والتعفّف عن المسـألة، أن «اليَـدَ العُلْيا خَيْـرٌ مِنَ اليَـدِ السُّفْلَى، واليَـدُ العُلْيـا هيَ المُنْفِقَـةُ، والسُّفْلَى هيَ السّائِلَةُ»(١).

آلِـفٌ مَـألوفٌ:

والمسلم الـواعي المستنير بِهَدْي دينه دَمِثٌ آلِفٌ مَـألوفٌ، يـألف الناس ويخالطهم ويُوادُّهم، ويألفه الناس ويخالطونه ويوادّونه، وهذه صفـة اجتماعيـة راقية، يتصف بها المسلم الـراقي الذي وعى رسـالة دينـه، وأدرك أن الاتصال بـالناس في المجتمـع وكسب ثقتهم من أهم واجبـات المسلم، وأنـه الـوسيلة الفعّالة النـاجعة لإسمـاعهم كلمة الحق، وتعـريفهم بالقِيَم والمثـل العليا التي يحملها؛ ذلك أن الناس لا يستمعون إلا لمن يـألفون ويثقـون به، ولا يقتنعـون بكـلام إلا إذا صدر مِمَّن يحملون لـه شيئاً من الثقـة والودّ والقبـول؛ ومن هنـا جـاءت النصوص تعلي من شـأن هذا النمط الـذي يـألف ويؤلف، وتجعله من الفئة المختارة، أَحَبَّ الفئات إلى الرسـول الكريم، وأقـربِها منـه مجالسَ يـومَ القيامة:

«ألا أُخْبِرُكُمْ بأَحَبِّكُمْ إلَيَّ، وأَقْـرَبِكُمْ منّي مَجْلساً يـومَ القِيَامـةِ؟ فأعـادَها ثَلاثاً أو مَرَّتَيْنِ، قالـوا: نَعَمْ يا رسـولَ ﷺ، قالَ: أَحْسَنَكُمْ خُلُقـاً»(٢). وزادت بعض الروايات: «المُوَطَّأُونَ أَكْنافاً الّذين يَأْلَفونَ ويُؤْلَفونَ».

إن من صفات المؤمن أن يكون آلفاً مألوفاً، يحب الناس ويحبونه، يقبل عليهم ويقبلون عليـه، وإذا لم يكن كذلـك فإنـه لا يستطيـع أن يؤدي رسالـة،

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد وإسناده جيد.

ولا يُرَجَّى لأمر، ولا ينهض بعبء، ومن كان كذلك لا خيرَ فيه، كما جاء في الحديث الشريف:

«المُؤْمِنُ يَأْلَفُ ويُؤْلَفُ، ولا خَيْرَ فيمَنْ لا يَأْلَفُ ولا يُؤْلَفُ»[١].

ولقد ضرب الرسول الكريم لأمته المثل الأعلى في حسن سلوكه مع الناس، وبراعته في تأليف القلوب، ودعاها للتأسّي به في القول والعمل والسلوك، ورسم لها السبيل القصد في كيفية التسرب إلى قلوب الناس، والوصول إلى حبهم وإعجابهم ومودّتهم، فقد كان صلوات الله عليه دائِمَ البِشْرِ، سهلَ الخلق، ليّنَ الجانب، ليس بِفَظّ، إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، يُعْطي كلَّ جلسائه نصيبَه، لا يَحْسَبُ جليسُه أن أحداً أكرمُ عليه منه، مَنْ سأَلَهُ حاجَةً لم يردّه إلا بها، أو بمَيْسور من القول، قد وسِعَ الناسَ منه بَسْطُه وخُلُقُهُ، فصار لهم أباً وصاروا له عندَه في الحقِّ سواءً، الناسُ في مجلسِه مُتعادلون، يتفاضَلون بالتّقوى، متواضِعون، يُوَقِّرون الكبيرَ، ويَرْحَمُونَ الصَغِيرَ، يُؤثرون ذا الحاجة، ويحفظونَ الغريب.

وكان صلوات الله عليه لا يُوئِسُ منه راجيه، ولا يَخِيبُ فيه، قد تركَ نفسَه من ثلاث: المراء، والإكثار، وما لا يَعْنِيه، وتركَ من الناس ثلاثاً: كان لا يذمُّ أحَداً، ولا يعيِّرُه، ولا يطلب عورتَه، ولا يتكلمُ إلا فيما يرجو ثوابَه، إذا تكلّم أطرقَ جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون مِنه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، حتى إنْ كانَ أصحابُه لَيَسْتَحْلِبونَهُ في المنطِق، ويقول: إذا رأيتم صاحبَ حاجة فارْفِدوه[٢]، ولا يقبلُ

---

(١) رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) أي أعينوه.

الثناءَ إلا مِنْ مُكافىء، ولا يقطع على أحد حديثَه حتى يجوزَه فيقطعَهُ بانتهاء أو قِيام[١].

وتحدثنا السيدة عائشة أنه كان يتقي شرار الناس، ويستميلهم بلين الكلام وحسن المعاملة؛ فقد استأذن رجلٌ عليه فقال: «ائْذَنوا لهُ: بئسَ أَخُو العَشِيرة أو ابن العشيرة»، فلمّا دَخَلَ أَلانَ لهُ الكَلامَ، فقالَتْ عائِشَةُ: يا رسولَ اللَّه، قُلْتَ الّذي قُلْتَ، ثمّ أَلَنْتَ له الكلامَ! قالَ: «أيْ عائشةُ، إنَّ شَرَّ النّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النّاسُ (أَوْ وَدَعَهُ النّاسُ) اتِّقاءَ فُحْشِهِ»[٢].

ولا ريب أن المسلم الحق يترسّم خطا نبيّه الأمين في معاملته الناسَ، صالحَهم وطالحَهم، بحيث يكون محبوباً مألوفاً مقبولاً لدى الناس جميعاً.

يُخْضِعُ عَادَاتِهِ لِمَقَاييسِ الإِسْلامِ:

ومن أهم ما يميز المسلم الحق الواعي إخضاعه كل عادة مألوفة في مجتمعه لمقاييس الإسلام، ومن هنا كانت قيَمُه الاجتماعية مستمدة كلها من تصور الإسلام ومفاهيمه ومنطلقاته الأصيلة المتميّزة.

فهو لا يتختّم بالذهب؛ لأنّ التختّم بالذهب حرام على الرجال في دين الإسلام، أعلن ذلك رسول الإسلام إذ رأى رجلاً يلبس في أصبعه خاتماً من ذهب، فقال:

«أَيَعْمَدُ أَحَدُكُمْ إلى جَمْرَةِ نارٍ فَيَضَعُها في يَدِهِ؟»[٣].

ثم نزع الخاتم من أصبع الرجل وطرحه أرضاً. وهنا تجلّت روعة الطاعة

---

(١) انظر حياة الصحابة ١/٢٢، ٢٣.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه مسلم.

والامتثال والانصياع لأمر الله ورسوله في ذلك الرجل، إذ قال له أصحابه: خذ خاتمك المطروح فانتفع بثمنه، فقال: لا والله، لا أرفع شيئاً طرحه رسول الله ﷺ.

والمسلم الحق لا يأكل ولا يشرب في آنية الذهب والفضة، ولا يلبس الحرير والدِّيباج؛ لأن الرسول الكريم نهى عن ذلك في أحاديث كثيرة، منها حديث حذيفة رضي الله عنه الذي يقول فيه:

«إنَّ النبيَّ ﷺ نَهانا عَنِ الحَريرِ والدِّيباجِ والشُّرْبِ في آنِيَةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، وقالَ: «هِيَ لهمْ في الدُّنْيا، وهيَ لكمْ في الآخِرَةِ»[1].

وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال:

«الّذي يَشْرَبُ في آنِيَة الفِضَّةِ إنّما يُجَرْجِرُ في بَطْنِهِ نارَ جَهَنَّمَ»[2].

وفي رواية لمسلم:

«إن الّذي يَأْكُلُ أوْ يَشْرَبُ في آنِيَةِ الفِضَّةِ والذَّهَبِ»، وفي رواية له أيضاً: «مَنْ شَرِبَ في إناءٍ مِنْ ذَهَبٍ أوْ فِضَّةٍ فإنّما يُجَرْجِرُ في بَطْنِهِ ناراً مِنْ جَهَنَّمَ».

وعن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنّما يَلْبَسُ الحَريرَ مَنْ لا خَلاقَ لَهُ[3] في الآخِرَةِ»[4].

وعن علي رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ أخذ حريراً فجَعَلَهُ في يمينه، وذهباً فجعَلَهُ في شِمالِهِ، ثم قال:

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) أي لا نصيب له.
(٤) رواه البخاري.

«إنَّ هذَيْنِ حَرامٌ على ذُكورِ أُمّتي»(١).

وعن أبـي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«حُرِّمَ لِباسُ الحَريرِ والذَّهَبِ على ذُكورِ أُمّتي، وأُحِلَّ لإناثِهِمْ»(٢).

وعن حـذيفة رضي الله عنـه قال: نَهـانـا النبـيُّ ﷺ أنْ نشـربَ في آنِيَـةِ الـذَّهَبِ والفِضّةِ وأنْ نَـأْكُـلَ فيهـا، وعن لُبْسِ الحَـريـرِ والـدِّيبـاجِ وأنْ نَجْلِسَ عليْهِ»(٣).

والمسلم الحق يحرم ذلك على نفسه امتثالاً لأمر الرسـول الكريم، قبـل أن تبدو له علة التحريم، اجتماعية نفسيّةً كانت أم اقتصادية، إذ أن دستوره في التحليل والتحريم قوله تعالى:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(٤).

وهو لا يتبع ما يسمى اليوم بـ (الموضة) في تقاليد الخطبة والـزواج، مما أخذناه عن الغرب كالعمي أو الببغـاوات التي تقلّد دونما تفكيـر وتروّ وتبصّـر، كلبس خاتم الخطبـة في اليد اليمنى، ثم نقله ليلة الـزفاف إلى اليـد اليسرى، ولا يسمح بدخول مصور غير محْرَم يلتقط لـه ولزوجـه الصور التـذكاريـة لليلة الزفاف، وغير ذلك مما ألفه النـاس في مجتمعاتنـا التي مُنِيَتْ بالغـزو الفكري والنفسي، فأضحت صورة مشوّهة عن المجتمعات الغربيـة، وهي تحسب أنها لا تزال تنتمي إلى الإسلام الانتماء الكامل.

ومن تلك العـادات التي يسقطهـا المسلم الواعي من حيـاته الاجتمـاعية

---

(١) رواه أبو داود بإسناد حسن.

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(٣) رواه البخاري.

(٤) الحشر: ٧.

عـادةُ تعليق الصـور ونصب التمـاثيـل في البيـوت، واقتنـاء الكلب في البيت إلا لحراسة؛ فقد اشتد الإسـلام في محاربـة هذه العـادات، وجاءت نصـوصه القاطعة تحرم ذلك على المؤمنين تحريماً لا مجال للترخص فيه:

عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «إنّ الّـذينَ يَصْنَعونَ هذِهِ الصُّورَةَ يُعَذَّبونَ يومَ القِيَامَةِ، يُقالُ لَهُمْ: أَحْيُوا ما خَلَقْتُمْ»[١].

وعن عـائشة رضي الله عنهـا قالت: قَـدِمَ رسولُ الله ﷺ من سفـر، وقـد سَتَرْتُ سَهْوَةً[٢] لي بِقِرامٍ[٣] فيه تَماثيلُ. فلمـا رآه رسولُ الله ﷺ تَلَوَّنَ وَجْهُـهُ! وقالَ:

«يـا عائِشَـةُ، أشَدُّ النّـاس عَذابـاً عندَ اللَّهِ يـومَ القِيَامَـةِ الّذينَ يُضـاهُـونَ بِخَلْقِ اللَّهِ!». قالَتْ: فَقَطَعْنَاهُ، فَجَعَلْنا مِنْهُ وِسادَةً أَوْ وِسادَتَيْنِ[٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

كُـلُّ مُصَوِّرٍ في النّـارِ يُجْعَلُ لَـهُ بِكُلِّ صُـورَةٍ صَوَّرَهـا نَفْسٌ، فَيُعَذِّبُـهُ في جَهَنَّمَ. قـال ابن عباس: فـإنْ كنتَ لا بدَّ فـاعِلاً فـاصْنَـعِ الشَّجَـرَ ومـا لا رُوحَ فيهِ[٥].

وعن أبـي طلحـة رضي الله عنـه أن رسـولَ الله ﷺ قـال: «لا تَـدخُـلُ المَلائِكَةُ بَيْتاً فيهِ كَلْبٌ ولا صُورَةٌ»[٦].

وعن عـائشة رضي الله عنهـا قالت: واعَـدَ رسولَ الله ﷺ جبـريـلُ عليـه

---

(١) متفق عليه.
(٢) أي نافذة صغيرة.
(٣) أي سِتْر.
(٤) متفق عليه.
(٥) متفق عليه.
(٦) متفق عليه.

السلام في ساعةٍ يأتيه فيها فجاءَتْ تلكَ الساعةُ ولم يَأْتِه! قالتْ: وكانَ بيدِهِ عصاً فَطَرَحَهَا مِنْ يَده، وهو يقولُ: «ما يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ولا رُسُلُهُ»، ثم الْتَفَتَ، فإذا جَرْوُ كَلْبٍ تَحْتَ سَرِيرِهِ، فقالَ: «مَتى دخَلَ هذا الكَلْبُ؟» فقلتُ: واللَّهِ ما دَرَيْتُ بِهِ، فأمرَ بِهِ فأُخْرِجَ، فجاءَهُ جِبْرِيلُ عليهِ السَّلامُ، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «وَعَدْتَني فَجَلَسْتُ لَكَ ولَمْ تَأْتِني». فقال: «مَنَعَني الكَلْبُ الَّذي كانَ في بَيْتِكَ، إنّا لا نَدْخُلُ بَيْتاً فيهِ كَلْبٌ ولا صُورَةٌ»[1].

والنصوص في ذلك كثيرة، وكلها تحرّم نشر الصور ونصب التماثيل. ولقد كشفت الأيام عن حكمة ذلك التحريم، وبخاصة في هذاالعصر الذي يسارع فيه المنافقون والمتزلفون وأصحاب المطامع والشهوات إلى الطغاة يزيّنون لهم التمادي في طغيانهم، ومن ذلك إقامة التماثيل لهم في حياتهم أو بعد مماتهم، ليجعلوا منهم آلهة أو أنصاف آلهة، يتربّعون على عرش العظمة، ويلهبون ظهور المستضعفين بالسياط.

إن الإسلام الذي جاء بعقيدة التوحيد، وحطّم أوثان الشرك والجاهلية منذ خمسة عشر قرناً، لَيَأْبَى لهذه الأوثان أن تعود مرة أخرى إلى حياة المسلمين، باسم تخليد الزعيم الفلاني تارة، وباسم تكريم الفنّان الفلاني تارة أخرى، وباسم تعظيم العالم أو الشاعر أو الأديب الفلاني تارة ثالثة، والمجتمع الإسلامي مجتمع موحِّد، لا يعرف التعظيم والتقديس والتبجيل إلا لله، ومن هنا لا مكان فيه لمثل هذه الأوثان والأنصاب.

أما اقتناء الكلب، فلا مانع منه إذا كان لصيد أو ماشية أو أرض، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) رواه مسلم.

«مَنِ اقْتَنَى كَلْباً إلاَّ كَلْبَ صَيْدٍ أَوْ ماشِيَةٍ، فإنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيراطان»[١].

وأما اقتناء الكلاب على الطريقة الغربية في البيوت، والعناية بها وتدليلها، وتخصيص أطعمة وصابون (شامبو) لها، وإنشاء حمامات خاصة بها، إلى غير ذلك مما ينفق عليه الغرب والولايات المتحدة بلايين الدولارات في العام، فليس من الإسلام وعاداته السمحة في شيء. وإذا كانت ظروف القوم النفسية في الغرب، والحياة المادية الجافة التي يحيونها انحرفت بهم إلى هذا التطرّف في تربية الكلاب، ليعوّضوا بها عن عاطفة الحب الإنساني التي فقدوها في حياتهم الاجتماعية، فإن الحياة الاجتماعية في الإسلام ريّا بالعاطفة الإنسانية، ولا حاجة بها لمثل هذا الانحراف[٢].

يَتَأَدَّبُ بِأَدَبِ الإِسْلامِ فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ:

ومن أهم ما يميز المسلم الحق أدبه على الطعام؛ فإذا ما وُجِدَ في مجتمع على مائدة طعام عرفتَه من آداب طعامه وشرابه التي جاء بها الهَدْي النبوي العالي، ورغّب كل مسلم أن يتحلى بها.

فهو لا يبدأ الطعام حتى يسمي الله، ويأكل بيمينه، وما يليه، عملاً بقول الرسول ﷺ:

«سَمِّ اللَّهَ، وكُلْ بِيَمِينِكَ، وكُلْ مِمّا يَلِيكَ»[٣].

وإذا نسي أن يذكر اسم الله تعالى في أول طعامه استدرك ما فاته فقال:

---

(١) متفق عليه.

(٢) انظر تحليلاً لهذا الانحراف ١٥٤ ــ ١٥٦.

(٣) متفق عليه.

بسم الله أولَه وآخرَه، كما في الحديث الذي روته السيدة عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ:

«إذا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ تَعالى، فإنْ نَسِيَ أنْ يَذْكُرَ اسمَ اللَّهِ تَعالَى في أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ أَوَّلَهُ وآخِرَهُ»(١).

ولقد كان رسول الله ﷺ يهتم جداً بذكر الله تعالى على الطعام، ويحض أصحابه على ذلك لما في هذاالذكر من خير كثير للآكلين، ودفع للشيطان وأذاه عن الطعام وآكليه:

فعن حُذيفَةَ رضي الله عنه قال: كنّا إذَا حضَرْنا معَ رَسولِ الله ﷺ طعاماً لم نضعْ أَيْدِينا حتّى يَبْدأ رسولُ اللَّهِ ﷺ فيَضَعَ يَدَهُ. وإنّا حضَرْنا معَهُ مرّةً طَعاماً، فجاءَتْ جاريةٌ كأنّها تُدْفَعُ، فَذَهبَتْ لِتَضَعَ يَدَها في الطّعامِ، فأخذَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بيدِها، ثم جاءَ أَعْرابِيٌّ كَأَنَّما يُدْفَعُ، فأخَذَ بيده، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «إنَّ الشَّيْطانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعامَ أنْ لا يُذْكَرَ اسمُ اللَّهِ تَعالَى عَلَيْهِ، وإنَّهُ جاءَ بهذه الجارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بها فأخَذْتُ بِيَدِها، فجاء بهذا الأَعْرابِيِّ لِيَسْتَحِلَّ به فأخَذْتُ بيدِهِ، والَّذي نَفْسي بيده إنّ يَدَهُ في يَدي مَعَ يَدَيْهِما، ثُمَّ ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ تَعالى وأَكَلَ»(٢).

أما المسألة الثانية فهي أكله بيمينه؛ فالمسلم المتأدب بأدب الإسلام يأكل بيمينه، ولا يأكل بشماله، وقد جاء الأمر بالأكل باليمين، والنهي عن الأكل بالشمال، واضحين صريحين في أحاديث كثيرة، منها قول الرسول الله:

«إذا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وإذا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بيَمِينِهِ فإنَّ الشَّيْطانَ يَأْكُلُ بِشِمالِهِ ويشربُ بِشِمالِهِ»(٣).

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

وقولهُ:

«لا يَأْكُلَنَّ أَحَدُكُمْ بِشِمالِهِ، ولا يَشْرَبَنَّ بِشِمالِهِ، فإنّ الشَّيْطانَ يأكُلُ بِشِمالِهِ، ويشْرَبُ بِشِمالِهِ».

وكان نافع يزيد فيها: «ولا يَأْخُذْ بِها ولا يُعْطِ بها»[١].

وكان الرسول الكريم إذا رأى أحداً يأكل بشماله نهاه ووعظه وأدّبه، وربما اشتدّ ودعا عليه إذا رأى منه كِبْراً وإصراراً على فعلته:

فعن سَلَمة بن الأكوعِ رضي الله عنه أن رجلاً أكَلَ عندَ رسولِ الله بشمالِهِ، فقالَ: «كُلْ بيمينك» قالَ: لا أَسْتَطيعُ». قَالَ: «لا اسْتَطَعْتَ»! ما مَنَعَهُ إلاّ الكِبْرُ! فما رَفَعَها إلى فيهِ[٢].

ذلك أن الرسول الكريم يحب التيامن في كل شيء، ويحضّ على الأخذ به، وفي ذلك يروي الشيخان والإمام مالك عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أُتِيَ بلبن قد شِيبَ بماء من البئر، وعن يمينه أعرابي وعن يساره أبو بكر الصديق، فشرب، ثم أعطى الأعرابي، وقال: «الأَيْمَنَ فالأَيْمَنَ».

وأُتِيَ مرة بشراب، وكان عن يمينه غلام[٣]، وعن يساره أشياخ، فشرب، ثم قال للغلام: الشَّرْبَةُ لك، فهل تتنازل عنها لهؤلاء الأشياخ؟ فقال الغلام: لا والله، لا أوثر بسؤرك أحداً يا رسول الله، والحديث المروي في هذا عن سهيل بن سعد رضي الله عنه، ونصه:

«أُتِيَ رسولُ الله ﷺ بشَراب، فشَرِبَ منه، وعَنْ يمينِهِ غُلامٌ وعَنْ يَسارِهِ

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) هو ابن عباس.

أشياخٌ، فقالَ لِلْغُلامِ: «أَتَأْذَنُ لي أَنْ أُعْطِيَ هؤلاءِ؟» فقال الغُلامُ: لا واللَّهِ، لا أُوثِرُ بنَصِيبِي مِنْكَ أَحداً، فَتَلَّهُ[1] رسولُ الله ﷺ في يَدِهِ[2].

إن هذه الشواهدَ والنصوصَ، وأمثالها كثيرٌ، لَتَدُلُّ دلالة قاطعة على أن التَّيامُنَ أدَبٌ هام جداً من آداب الإسلام، يأخذ المسلمُ الحق به نفسَه دونما تساهل أو ترخصّ أو تراخٍ، وهذا ما كان عليه الصحابة والتابعون، لا يشذ عن ذلك منهم أحد، ولقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعير هذا التيامن أهمية كبرى، ولا يتغاضى عمن يتساهل فيه. وفي إحدى جولاته على الرعية متفقداً أحوالهم رأى رجلاً يأكل بشِمالِهِ، فقال له: يا عبد الله كل بيمينك، ورآه ثانية يأكل بشِماله، فخفقه بالدِّرَّة، وقال له: يا عبد الله كل بيمينك، ورآه مرة ثالثة يأكل بشِماله، فخفقه بالدِّرّة، وقال له بحدّة: يا عبد الله كل بيمينك، فأجاب الرجل: يا أمير المؤمنين إنها مشغولة، فقال عمر: وما شغلها؟ قال: شغَلَها يومُ مُؤْتَة[3]، فبكى عمر، وأقبل على الرجل معتذراً مواسياً قائلاً له: مَنْ يُوَضِّئُكَ؟ مَنْ يقومُ بحاجاتِكَ؟ مَنْ يُعينُكَ على أمورِكَ؟ ثم أمر بإنصافه ورعايته.

إن اهتمام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بهذه الجزئية في سلوك رجل من الرعية ليؤكد أهمية هذه الجزئية، ودلالتها الكبيرة على شخصية المسلم، وتعبيرها عن هويته المتميّزة، وحرص عمر الشديد على تطبيقها في حياة المسلمين. ومن هنا لا يجوز التساهل فيها أو التغاضي عنها.

وأحب أن أسوق هذا الكلام إلى المسلمين الذين أخذوا بنظام المائدة الغربية القاضي بجعل الشوكة على اليسار، والسكين على اليمين، ليقطع

---

(١) أي وضعَه.

(٢) متفق عليه.

(٣) أي قطعت في غزوة مؤتة.

الأكلُ بيمينه، ويتناول اللقمة بيساره، فاتّبعوه دونما تَعديل، فإذا هم يأكلون بيسارهم مخالفين بذلك هَدْي دينهم، ولم يكلفوا أنفسهم أن ينقلوا الشوكة إلى اليمين، والسكين إلى اليسار، ليأكلوا بيمينهم خشية أن يُخْدَشَ (الإتيكيت) الغربي. وهذا لون من ألوان الهزيمة النفسية التي مُنِيت بها أمّتُنا أمام ما يَفِد إلينا من أشياء مستحدثة، نعكف على تطبيقها دونما تعديل أو تكييف يوائم شخصيتنا وديننا وقِيَمنا الأصيلة. والمسلم الحق بعيد عن هذا التقليد الببغاوي الأعمى التافه الهزيل.

إن المسلم الواعي البصير المعتزّ بِهَدْي دينه القويم وأدبه العالي الرفيع في شؤون الحياة كافة لَيَعْمد إلى الأكل باليمين، داعياً إلى ذلك، ولا يخجل أن يجهر به في المحافل والمجتمعات التي لا تزال تتمسّك بحرفية ما جاءنا من الغرب، حتى يتنبّه الغافلون واللامبالون، ويثوبون إلى رشدهم في اتباع هَدْي السنة النبوية المطهّرة في التيامن في الطعام والشراب.

وأما المسألة الثالثة، فهي أكله مما يليه، عملاً بأدب الإسلام في تناول الطعام. وقد جاء به الأمر النبوي أيضاً صريحاً واضحاً مع التسمية والأكل باليمين في أحاديث كثيرة، ومنها قوله فيما رواه عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه قال: كنتُ غلاماً في حجر رسول الله ﷺ[1]، وكانت يدي تطيش في الصَّحْفة[2]، فقال لي رسول الله ﷺ:

«يا غُلامُ، سَمِّ اللَّهَ، وكُلْ بِيَمِينِكَ، وكُلْ مِمّا يَلِيكَ»[3].

وإذا تناول المسلم طعامه بيده تناوله برفق ولطف وتهذيب، كما كان يفعل الرسول ﷺ، إذ كان يتناول طعامه بأصابع ثلاث، ولا يغمس يدَه كلها

---

(١) أي تحت نظره.

(٢) أي تتحرك وتمتد إلى نواحي الصَّحْفة، وهي الإناء.

(٣) متفق عليه.

في الطعام على نحو تشمئز منه الأنظار وتنفر النفوس، وهذا ما حكاه كعب بن مالك رضي الله عنه قال:

«رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْكُلُ بِثَلاثِ أَصابِعَ، فإذا فَرَغَ لَعِقَها»[١].

وكان ﷺ يأمر بلَعْق الأصابع وسَلْتِ الصَّحْفَة[٢]، وذلكَ فيما يُرْوَى عن جابر رضي الله عنه من أن رسول الله ﷺ أمر بلَعْقِ الأصابع والصَّحْفَة، وقال:

«إنَّكُمْ لا تَدْرُونَ في أيِّ طعامِكُمُ البَرَكَةَ»[٣].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أَكَلَ طَعاماً لَعِقَ أصابعَه الثَّلاثَ، وقال: «إذا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْها، وَلْيُمِطْ عَنْها الأَذَى، وَلْيَأْكُلْها، ولا يَدَعْها لِلشَّيْطانِ» وأمرَنا أن نَسْلُتَ القَصْعَةَ، وقالَ: «إنَّكُمْ لا تَدْرونَ في أَيِّ طَعامِكُمُ البَرَكَةَ»[٤].

وفي هذا الهَدْي النبوي الكريم، فضلاً عن التماس البركة، حضٌّ على نظافة الأيدي والآنية؛ ومَسْحُها من بقايا الأطعمة أليقُ بالإنسان المهذَّب النظيف، وأدلّ على نظافته وترتيبه وذوقه المرهف. وقد وصل الغرب اليوم إلى الأخذ بهذه العادة الحسنة التي قررها الرسول الكريم منذ خمسة عشر قرناً؛ فالأوربيون اليوم يمسحون الصحون ولا يدعون فيها شيئاً.

وبدهي أن المسلم المرهف الحس المتأدب بأدب الإسلام لا يتمطّق في أكله، ولا يشخر، ولا ينفخ حين مضغه الطعام محدثاً أصواتاً منفرة مزعجة، ولا يكبّر اللقمة بحيث يصبح منظرُ فِيه منتفخاً مزرياً قبيحاً.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) أي مسحها.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه مسلم.

فإذا فرغ من طعامه، فاه بالحمد لله عزّ وجلّ بالصيغة الرائعة التي علّمنا إياها الرسول الكريم، شاكراً لله نعمته، ملتمساً منه أجرَ ومثوبَةَ الحامِدين الشاكرين.

فعن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدته قال:

«الْحَمْدُ للَّهِ كَثيراً طَيِّباً مُبارَكاً فِيهِ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ ولا مُوَدَّعٍ ولا مُسْتَغْنىً عَنْهُ، رَبَّنا»(١).

وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ أَكَلَ طَعاماً فقالَ: الْحَمْدُ للَّهِ الَّذي أَطْعَمَني هذا ورَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنّي ولا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(٢).

ولا يعيب المسلم المتأدب بأدب الإسلام الطعام مهما كان، أخْذاً بالهَدْي النبوي في ذلك، وجرياً على فعل الرسول ﷺ حين يأتيه الطعام.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما عابَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ طَعاماً قَطُّ: إنِ اشْتَهاهُ أَكَلَهُ، وإنْ كَرِهَهُ تَرَكَهُ»(٣).

وأما آدابه في الشراب فمستمدة أيضاً من أدب الإسلام الذي أدّب الإنسان، فأحسن تأديبه في كل شأن من شؤون الحياة.

فهو يشرب على دفعتين أو ثلاث، بعد التسمية، ولا يتنفّس في الإناء، ولا يشرب من فم السقاء ما أمكنه ذلك، ولا ينفخ في الشراب، ويشرب قاعداً إن استطاع.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن.

(٣) متفق عليه.

أما الشرب على دفعتين أو ثلاث، فهو ما كان عليه الرسول الكريم، كما أخبر بذلك أنس رضي الله عنه بقوله: «كان رسول الله ﷺ يتنفس في الشراب[١] ثلاثاً»[٢].

ولقد نهى الرسول الكريم عن الشرب دفعة واحدة بقوله:

«لا تَشْرَبُوا واحِداً كَشُرْب البَعير، ولكن اشْرَبوا مَثْنى وثُلاثَ، وسَمُّوا إذا أَنْتُمْ شَرِبْتُمْ، واحْمَدوا إذا أَنْتُمْ رَفَعْتُمْ»[٣].

ونهى عن النفخ في الشراب، وجاء ذلك في حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ نهى عن النفخ في الشراب، فقال رجل: أرى القَذاة فيه، قال النبي ﷺ: «فأَهْرِقْها» قال: إني لا أَرْوَى مِنْ نَفَسٍ واحِدٍ، فقالَ الرسولُ ﷺ: «فَأَبِنِ القَدَحَ عَنْ فِيكَ ثُمَّ تَنَفَّسْ»[٤].

ومن استعراض الأحاديث الواردة في أدب الشراب يتبين أن الأحسن صنعاً والأمثل طريقة ألا يشرب المسلم المهذَّب من فم السِّقاء ما أمكنه ذلك، وأن يشرب قاعداً ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فذلك أمثل وأكمل وأفضل، كما تدل على ذلك الأحاديث الواردة في هذا الموضوع، وإنْ كان الشرب من فم السقاء وفي حالة القيام جائزين؛ لأن الرسول الكريم شرب في هذه الحالات جيعاً.

يُفْشِي السَّلام:

ومن أدب المسلم الاجتماعي المميز إفشاؤه السلام. وإفشاء السلام في الإسلام ليس تقليداً اجتماعياً، تعاور على وضعه وتنظيمه البشر في عصورهم

---

(١) أي يتنفس خارج الإناء.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

(٤) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

المُختلفة، فهو يتغير ويتطور تبعاً للبيئة الاجتماعية والعصر الذي وُضِعَ فيه، وإنما هو أدب محدَّد منظّم أصيل، أمر به رب العزة في كتابه الحكيم، ونظّمه ووضع قواعدَه الرسولُ الكريم في أحاديثه الثَّرّة الغزيرة التي أفردها المحدّثون بباب مستقلّ سموه «كتاب السلام»، أو «باب السلام».

لقد أمر الله تعالى المؤمنين بالسلام في محكم كتابه فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ[1] وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَآ﴾[2].

وأمر بردّ التحية بأحسن منها أو بمثلها، ومن هنا كان واجباً على كل من سمع تحية أن يردّها ولا يتجاهلها أو يتهاون في ردّها:

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ﴾[3].

وجاء الهَدْيُ النبوي ثرّاً غزيراً يحضّ بحرارة على إفشاء السلام وإسماعه مَنْ نَعرف ومَنْ لا نعرف؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الإسلام خَيْرٌ؟ قال:

«تُطْعِمُ الطَّعامَ، وتَقْرَأُ السَّلامَ على مَنْ عَرَفْتَ ومَنْ لَمْ تَعْرِفْ»[4].

وكان السلام إحدى الوصايا السبع التي أمر رسول الله ﷺ صحابته بها، ليلتزموها في حياتهم الاجتماعية، وتلتزمها الأمة الإسلامية من بعدهم، وهي كما عدّدها البراء بن عازب رضي الله عنه، قال:

«أَمَرَنا رَسولُ اللَّهِ ﷺ بِسَبْعٍ: بِعِيادَةِ المَريضِ، واتِّباعِ الجَنائِزِ،

---

(١) أي تستأذنوا.

(٢) النور: ٢٧.

(٣) النساء: ٨٦.

(٤) متفق عليه.

وتَشْمِيتِ العـاطِسِ، ونَصْـرِ الضَّعِيفِ، وعَـوْنِ المـظْلُومِ، وإفْشـاءِ السَّـلامِ، وإبْرارِ المُقْسِمِ»[١].

لقد أعطى الرسول الكريم قضية السلام جانباً كبيراً من اهتمامه، وحضّ على تطبيقه، وحبّب فيـه، في قسم كبير من أحـاديثه، لمـا كان يعلم من أثـره الكبيـر في تفجير ينـابيع الحب في النفـوس، وتوثيق عـرى القلوب، وإحكـام وشائج الودّ والتقارب والتصافي بين الأفراد والجماعات، حتى إنـه جعله سبب المحبة التي تفضي إلى الإيمان، الموصل إلى الجنة، وذلك في قوله:

«والّـذي نَفْسي بِيَـدِهِ لا تَدْخُلُونَ الجَنَّـةَ حَتّى تُؤْمِنـوا، ولا تُؤْمِنـوا حَتّى تَحابُّوا، أوَ لا أَدُلُّكُمْ على شَيْءٍ إذا فَعَلْتُموه تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بينَكمْ»[٢].

وجعل أَوْلَى الناس بالله ومرضاته ونعمه وخيراته مَنْ يبدأ الناسَ بالسلام:

«إنَّ أَوْلَى النّاسِ باللَّهِ مَنْ بَدَأَهُمْ بِالسَّلامِ»[٣].

ولـذلك كـان عبد الله بن عمـر رضي الله عنه يغـدو إلى السوق فـلا يمر على أحد إلا سلّم عليه، وسئل يوماً: ما تصنع في السوق، وأنت لا تقف على البَيْـع، ولا تسأل عن السِّلَع، ولا تسـوم بها، ولا تجلس في مجـالس السُّوق؟ فقال: «إنّما نَغْدو مِنْ أَجْلِ السَّلامِ على مَنْ لَقِينا»[٤].

وللسـلام في المجتمع الإسـلامي صيغة واحـدة يلتـزمهـا المسلم الحق الـواعي آدابَ دينـه، الحـريصُ على تـطبيق هَـدْيـه المتميـز الأصيـل، وهي: «السَّلامُ عليكمْ ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُهُ»، يقولهـا المبتدىء بـالسّلام هكـذا بضمير

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أبو داود بإسناد جيد، ورواه الترمذي بنحوه وقال: حديث حسن.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

الجمع، ولو كان المسلَّم عليه واحداً، ويقول المجيب: «وعليكم السَّلامُ ورحمةُ اللَّهِ وبَرَكاتُه».

ولا يغني عن هذه الصيغة الشرعية الأصيلة صِيَغٌ أخرى قديمة مثل: عِمْ صَباحاً، أو صِيَغٌ مُسْتَحدَثة كصباح الخير، التي هي ترجمة حرفية لـ (Good morning) بالإنكليزية، أو (Bonjour) بالفرنسية، وما إلى ذلك من صيغ تفشّت في مجتمعات المسلمين المتخلِّفين عن هَدْي دينهم القويم.

إن تحية الإسلام هذه هي التحيةُ التي اصطفاها الله تعالى لخلقه منذ خلق آدم، علّمه إياها، وأمره أن يحيّي بها الملائكة، وأراد لذريته على مدى عصورها واختلاف أمصارها أن تتمسك بها، لما تحمل من معنى السلام، أحبُّ شيء للإنسان في كل زمان ومكان. ولم تُبْقِ على هذه التحية الربانية الأصيلة سوى أمة الإسلام التي بقيت على المِلَّةِ الحنيفية السمحة، لم تُغَيِّرْ فيها ولم تُبَدِّل، ولم تنحرف عن هدْيها ولم تَمِلْ، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ:

«لَمّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ ﷺ قالَ: «اذْهَبْ فَسَلِّمْ على أُولئِكَ ـ نَفَرٍ مِنَ الملائِكَةِ جُلوسٍ ـ فاسْتَمِعْ ما يُحَيُّونَكَ، فإنَّها تَحِيَّتُكَ وتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فقالَ: السَّلامُ عليْكُمْ، فقالوا: السَّلامُ عَلَيْكَ ورَحْمَةُ اللَّهِ، فزادُوهُ: ورَحْمَةُ اللَّهِ»[1].

لا بدعَ إذاً أن تكون هذه الصيغةُ هي التحيةَ المباركة الطيبة؛ لأنها جاءتنا من عند الله تعالى، وأمرنا أن نتخذها تحيتنا، ولا نعدل عنها إلى سواها:

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾[2].

---

(١) متفق عليه.

(٢) النور: ٦١.

ومن أجل ذلك التزم بصيغتها جبريلُ عليه السّلام حين قرأ عائشة السلام، وكذلك التزمت السيدة عائشة رضي الله عنها بصيغة الردّ، كما جاء في الحديث المتفق عليه:

«عَنْ عائِشَةَ رضي الله عنها قالَتْ: قالَ لي رسولُ الله ﷺ: «هذا جِبْريلُ يَقْرَأُ عَلَيْكِ السَّلامَ» قالَتْ قُلْتُ: وعَلَيْهِ السَّلامُ ورَحْمَةُ اللَّهِ وبَرَكاتُهُ»[1].

وللسّلام في الإسلام قواعد أيضاً، يحرص المسلم الحق على إتقانها وتطبيقها بدقة في حياته الاجتماعية، وتتلخص هذه القواعد في الحديث الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُسَلِّمُ الرّاكِبُ على الماشي، والماشي على القاعِدِ، والقَليلُ على الكَثيرِ»[2]. وفي رواية للبخاري: «والصَّغيرُ على الكبيرِ».

والسلام يكون على الرجال وعلى النساء أيضاً، يشهد لذلك حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ مَرَّ في المَسْجِدِ يَوْماً وعُصْبَةٌ مِنَ النِّساءِ قُعودٌ فألْوَى بيدِهِ بالتَّسْلِيمِ»[3].

ويكون السلام أيضاً على الصبيان، تعويداً لهم على آداب التحية والسلام؛ فعن أنس رضي الله عنه أنه مَرَّ على صِبيانٍ فسَلَّمَ عليْهِمْ، وقال: كانَ رسولُ الله ﷺ يَفْعَلُهُ[4].

ومن قواعد السلام وآدابه في الإسلام أن يُلْقَى في الليل برفق وتُؤَدة وخفض صوت، بحيث يسمعه اليقظان، ولا يُوقِظ الوَسْنان، وهذا ما كان

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

(٤) متفق عليه.

يفعله رسول الله ﷺ فيما يرويه المقداد رضي الله عنه في حديثه الطويل، قال: «كُنّا نَرْفَعُ للنَّبيِّ ﷺ نَصِيبَهُ مِنَ اللَّبنِ، فيجيءُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُسَلِّمُ تَسْليماً لا يُوقِظُ نائِماً، ويُسْمِعُ اليَقْظانَ، فجاءَ النبيُّ ﷺ فَسَلَّمَ كما كانَ يُسَلِّمُ»[1].

ويكون السلام عند الدخول إلى المجلس وحين القيام منه وفي ذلك يقول الرسول ﷺ:

«إذا انْتَهى أَحَدُكُمْ إلى المَجْلِسِ فَلْيُسَلِّمْ، فإذا أَرادَ أَنْ يَقومَ فَلْيُسَلِّمْ، فلَيْسَتِ الأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الآخِرةَ»[2].

لا يَدْخُلُ غيرَ بَيْتِهِ إلّا بِاسْتِئْذانٍ:

ولا يدخل المسلم الواعي آدابَ دينه بيتاً غيرَ بيته إلا باستئذان. وهذا الاستئذان أمر رباني، لا يجوز التهاون في شأنه أو التغاضي عنه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ[3] وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ . . .﴾[4].

إن الدخول إلى بيوت الناس لا يكون نقياً خالياً من الشوائب بعيداً عن الشبهات، إلا إذا كان بإذن أهله. ومن هنا لا مجال للتلصّص والاستغفال والترقّب والتسرّب والدخول غير المشروع الذي يخفي وراءه الرِّيَب والشكوك؛

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن.

(٣) أي تستأذنوا.

(٤) النور: ٢٧ ــ ٢٨، ٥٩.

ذلك أزكى وأنقى لسمعة الزائر والمَزور، وهذا ما أراده الله لعباده المؤمنين حين شرع الاستئذان.

وللاستئذان آداب حرص الإسلام على تجليتها للمسلم، وأمره بالتحلّي بها كلما قادته قدماه إلى زيارة إنسان.

وأولها: ألا يقف أمام الباب، بل يأخذ يمنةً أو يسرةً، وهذا ما كان يفعله رسول الله ﷺ؛ فعن عبد الله بن بُسْر، صاحب النبي ﷺ: «أن النبي ﷺ إذا أتى باباً يريد أن يستأذن لم يستقبلْه، جاء يميناً أو شِمالاً، فإن أُذِن له، وإلا انصَرَفَ»[1].

ذلكَ أن الاستئذان جُعِلَ من أجل البصر، كما في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّما جُعِلَ الاسْتِئذانُ مِنْ أَجْلِ البَصَرِ»[2].

ومن هنا لا يجوز للمستأذن أن يقف في مواجهة الباب حيث ينصبّ البصر حين فتْحِه.

وثانيها: السلام فالاستئذان، ولا يصح الاستئذان قبل السلام؛ بهذا جاء الهَدْي النبوي العالي في حديث رِبْعيّ بن جِراشٍ، قال: «حدَّثنا رجلٌ من بني عامِر أنه استأذَنَ على النبيِّ ﷺ، وهوَ في بيت، فقال: أأَلِجُ؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ لخادِمِه: «اخْرُجْ إلى هذا فَعَلِّمْهُ الاسْتِئْذانَ، فقُلْ لهُ: قُلْ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ، أأَدْخُلُ؟» فسَمِعَهُ الرجلُ فقالَ: السّلامُ عليكمْ أأَدْخُلُ؟ فأذِنَ لهُ النبيُّ ﷺ، فَدَخَلَ»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

وثالثها: أن يسمي نفسَه بما يُعْرَف به من اسم أو كنية، إذا قيل لـه: من أنت؟ ولا يقول كلمة غامضة مثل: أنا، ونحوها؛ فقد كره النبي ﷺ أن يجيب الطارق بكلمة أنا التي لا تفصح عن هوية صاحبها وشخصيته، وأمر بذكر الاسم الصريح عند السؤال.

عن جابر رضي الله عنه قال: «أتيتُ النبيَّ ﷺ، فَدَقَقْتُ البابَ، فقالَ: «مَنْ هذا؟» فقُلْتُ: أنا، فقالَ: «أنا أنا؟!» كأنَّهُ كَرِهَها»[1].

لقد علّمنا الرسول الكريم بذلك أن السنة في أدب الاستئذان ذكرُ الاسم الصريح، وهذا ما كان عليه هو وصحابته الأكرمون.

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: خرجتُ ليلةً منَ اللّيالي، فإذا رسولُ اللَّهِ ﷺ يَمْشي وَحْدَهُ، فجعلتُ أمْشي في ظِلِّ القَمَرِ، فَالْتَفَتَ فَرآني، فقالَ: «مَنْ هذا؟» فقلتُ: أبو ذَرٍّ»[2].

وعن أم هانىء رضي الله عنها قالَتْ: أتيتُ النبيَّ ﷺ، وهُوَ يَغْتَسِلُ، وفاطِمَةُ تَسْتُرُهُ، فقالَ: «مَنْ هذِه؟» فقلتُ: أنا أُمُّ هانِىء»[3].

ورابعها: أن يرجع إذا قيل له: ارجع، دون أن يجد في نفسه شيئاً من غضاضة؛ إذ بذلك جاء أمر الله في كتابه العزيز:

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[4].

وبذلك أيضاً جاءه الهَدْي النبوي العالي، مبيناً أن الاستئذان ثلاثٌ، فإن

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.
(٤) النور: ٢٨.

أُذِن للمستأذن دخل، وإلا رجع، وذلك في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الاسْتِئْذانُ ثَلاثٌ، فإنْ أُذِنَ لَكَ[1]، وإلاّ فَارْجِعْ»[2].

واستأذن أبو موسى الأشعري مرة على عمر فلم يأذن له، فانصرف، فأرسل إليه عمر، ودار بين الاثنين حديث حول الاستئذان والرجوع، من المفيد إيرادُه بنصّه، ليطّلع القارىء على دقة الصحابة الكرام في تقصّي هَدْي الرسول الكريم، وحرصِهمْ على وضعه موضع التطبيق، قال أبو موسى:

«اِسْتَأْذَنْتُ عَلَى عُمَرَ فلَمْ يُؤْذَنْ لي ـ ثَلاثاً ـ فأَدْبَرْتُ، فأرسَلَ إليَّ فقالَ: يا عبدَ اللَّهِ، اشتدَّ عليكَ أن تحتبسَ عَلَى بابي؟ اِعلَمْ أنَّ الناسَ كذلكَ يشتدُّ عليهمْ أنْ يحتَبِسُوا على بابِكَ، فقلتُ: بَلِ اسْتأذنتُ عليكَ ثَلاثاً، فلمْ يُؤْذَنْ لي، فرجعتُ [وكُنّا نُؤْمَرُ بذلكَ]. فقالَ: مِمَّنْ سمعتَ هذا؟ فقلتُ: سمِعْتُه منَ النبيِّ ﷺ، فقالَ: أسمعتَ منَ النبيِّ ﷺ ما لَمْ نسمَعْ؟ لئِنْ لَمْ تأتِني على هذا بِبَيِّنَةٍ لأَجْعَلَنَّكَ نَكالاً، فخرجتُ حتّى أتيتُ نَفَراً مِنَ الأَنْصارِ جُلوساً في المسجد، فَسَأَلْتُهمْ، فقالوا: أَوَيَشُكُّ في هذا أحدٌ؟ فأخبرتُهمْ ما قالَ عمرُ، فقالوا: لا يَقومُ معَكَ إلاّ أصْغَرُنا. فقامَ معي أبو سعيد الخُدْرِيّ ـ أو أبو مسعود ـ إلى عمرَ، فقالَ: خرَجْنا مع النبيِّ ﷺ، وهو يريدُ سعدَ بنَ عُبادَةَ، حتى أتاهُ، فسلَّمَ، فلَمْ يُؤْذَنْ لـه، ثمَ سلَّمَ الثانيةَ ثم الثالثةَ، فلم يُؤْذَنْ لـه، فقالَ: قضَيْنا ما علَيْنا. ثم رجعَ، فأدركَهُ سَعْد، فقالَ: يا رسولَ الله، والذي بعثَكَ بالحقِّ ما سلّمتَ مِنْ مرّةٍ إلا وأنا أسمعُ وأردُّ عليكَ، ولكنْ أَحْبَبْتُ أن تُكْثِرَ مِنَ السّلامِ عليَّ وعلى أَهْلِ بيتي. فقال أبو موسى: واللَّهِ إنْ

---

(١) أي فإن أُذِنَ لك فَادْخُلْ.

(٢) متفق عليه.

كنتُ لَأَميناً على حديثِ رسولِ اللّهِ ﷺ، فقالَ: أجَلْ، ولكنْ أحببتُ أنْ أستَثْبتَ»[١].

وفي رواية لمسلم أيضاً أن عمر قال معاتباً نفسَه حين ثبت له الحديث: «خَفِيَ عليَّ هَذا مِنْ أمرِ رسول الله ﷺ؛ أَلْهاني عَنْهُ الصَّفْقُ بالأسواقِ». يعني الخروجَ إلى التّجارة في الأسواق.

يَجْلِسُ حَيْثُ يَنْتَهي بِهِ المَجْلِسُ:

وللمسلم الحق الواعي المستنير أدبُه المتميّز أيضاً في المجلس الذي يغشاه، وإنه لَأدبٌ عالٍ مُسْتَقًى من هَدْي الرسول القولي والعملي، يجعل مَنْ تحلّى به آية في الرقي الاجتماعي والدماثة الخلقية.

وأول ما يتعلمه المسلم من هذا الهَدْي الرفيع الجلوسُ حيث ينتهي به المجلس، فلا يتخطّى الرقاب، ولا يزاحم الجلوس ليفسحوا له مكاناً بينهم في صدر المجلس، متبعاً بذلك السُّنةَ الاجتماعية القويمة التي علّمها رسولُ الله ﷺ الصحابةَ الكرام حين يغشون مجلسَه الكريم.

فعن جابر بن سَمُرَة رضي الله عنه، قال: «كُنّا إذا أتَيْنا النبيَّ ﷺ جَلَسَ أَحَدُنا حيثُ يَنْتهي»[٢].

فالمسلم المتأدب بهذا الأدب العالي يتحاشى أن يُقْحِمَ نفسَه بين اثنين، فيفرّق بينهما إلا بإذنهما حين تدعو ضرورة إلى ذلك؛ ذلك أن تفريقه بينهما بغير إذنهما مما نهى عنه الرسول الكريم، وحذّر منه بقوله:

---

(١) رواه البخاري ومسلم. وانظر: الأدب المفرد، الحديث ١٠٧٣.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح غريب.

«لا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يُفَرِّقَ بينَ اثنيـن إلاّ بإذْنِهِمَا»(١).

ذلك أن إقحام الشخص نفسَه بين اثنين، سواءٌ أكان ذلك في مجلس أم في غيـر مجلس، من الأمور المستكـرهة المستهجنـة التي اشتـدّ الإسـلامُ في تبيـان قبحها، والتنبيـه إلى تجنّبها. والأحـاديث والآثار في ذلـك كثيـرة جـداً، ومنهـا ما يـرويه سعيـد المقبريّ، يقـول: «مررتُ على ابنِ عمـرَ ومَعَـهُ رجـلٌ يتحدّثُ، فقمتُ إليهما، فلَطَمَ في صَـدري فقال: إذا وجـدتَ اثنين يتحدثـان فلا تَقُمْ معَهما، ولا تجلسْ معَهما، حتى تستأذنَهمـا. فقلتُ: أصلحكَ اللّهُ يـا أبا عبدِ الرّحمنِ، إنما رَجَوْتُ أنْ أسمعَ منكُمَا خَيْراً»(٢).

وإذا قام له أحد من المجلس ليجلسه مكانه لم يقبل الجلوسَ فيه؛ ذلك أكرمُ وأفضلُ وأمثلُ، وأشبهُ بما كان عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم.

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«لا يُقيمَنَّ أَحَـدُكُمْ رَجُـلاً مِنْ مَجْلِسِـه، ثُمّ يَجْلسُ فيـهِ، ولكنْ تَـوَسَّعـوا وتَفَسَّحوا»(٣). وكان ابن عمر إذا قام له رجل من مجلسه لم يجلس فيه(٤).

وإذا ما استقرّ به المجلس كان في أحاديثه وتصـرّفاتـه متأدبـاً ما استـطاع بـأدب الرسـول الكريم حين كـان يجالس النـاس؛ فقـد كـان ﷺ يعـطي كـلّ جلسائه نصيبَه، لا يحسب جليسُه أن أحداً أكرمُ عليـه منه، لا يـذمّ أحداً، ولا يعيّره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابـه، ولا يقطع على أحـد حديثه حتى يجوزه فيقطعه بانتهاء أو قيام(٥).

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن.
(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه مسلم.
(٥) انظر حياة الصحابة ١/ ٢٢ ـ ٢٣.

يَجْتَنِبُ التَّثاؤُبَ في المَجْلِسِ مَا اسْتَطَاعَ:

والمسلم المهذَّب الواعي آداب المجالس لا يتثاءب في مجلسه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وإذا ما غشيه التثاؤب وغلبه على أمره حاول دفعه ما استطاع، وهذا ما أرشد إليه الرسول الكريم بقوله:

«إذا تَثاءَبَ أحَدُكُمْ فَلْيَكْظِمْ ما اسْتَطاعَ»(١).

أما إذا كان التثاؤب أقوى من أن يُكْظَم أو يُدْفَع، فَلْيَضَعْ يده على فمه، وبهذا أمر الرسول الكريم بقوله:

«إذا تَثاءَبَ أحَدُكمْ فَلْيُمْسِكْ بِيَدِهِ على فِيهِ فإنَّ الشَّيْطانَ يَدْخُلُ»(٢).

إن التثاؤب في المجالس قبيح منفِّر لا يليق بالإنسان المهذّب. ومن هنا لا بد من دفعه أو تحاشيه بستر الفم الفاغر المتثائب باليد، وحجب منظره عن الجالسين، بذلك جاء الهَدْي النبوي الكريم معلّماً المسلمَ التصرفَ الاجتماعي اللبق الذي لا ينفّر الجالسين، ولا يشعرهم بملل المتثائب من مجالستهم، ورغبته في انصرافه عنهم أو انصرافهم عنه.

يَأْخُذُ بِأَدَبِ الإِسْلامِ عِندَ العُطاسِ:

وكما وضع الإسلام أدباً للتثاؤب في المجالس، وضع أدباً للعُطاس، فعلّم المسلم كيف يفعل إذا دهمه العطاس، وماذا يقول، وكيف يُشَمَّتُ العاطسَ ويدعو له.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ العُطاسَ ويَكْرَهُ التَّثاؤُبَ، فإذا عَطَسَ أحَدُكُمْ وحَمِدَ اللَّهَ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم.

تعالَى كانَ حَقّاً على كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أنْ يقولَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ. وأمّا التّثاؤُبُ فإنّما هُوَ مِنَ الشَّيْطانِ، فإذا تثاءَبَ أحَدُكمْ فَلْيَرُدَّهُ ما اسْتَطاعَ، فإنَّ أحدَكمْ إذا تَثاءَبَ ضَحِكَ منْهُ الشَّيْطانُ»[١].

إن هذا الحادث الانعكاسي البسيط لا يمر في حياة المسلم دون أن يكون له ضوابط وقواعد وآداب، تجعل المسلم يحسّ في أعماقه أن هذا الدين جاء لصلاح أمره كله، فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا نظّمها ووضع لها الصِّيَغ الخاصة بها التي تربط الإنسان دوماً بالله رب العالمين.

فإذا ما عطس فعليه أن يقول: الحمدُ للَّهِ، وعلى سامعه أن يقول: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، وعليه أن يجيب على دعاء صاحبه بدعاء: يَهْديكُمُ اللَّهُ ويُصْلِحُ بالَكُمْ، وهذا ما أرشد إليه حديث رسول الله ﷺ الذي رواه البخاري:

«إذا عَطَسَ أحدُكمْ فَلْيَقُلْ: الحَمْدُ للَّهِ، وَلْيَقُلْ لَهُ أخوهُ أوْ صاحِبُهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ. فإذا قالَ له: يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَلْيَقُلْ: يَهْديكمُ اللَّهُ ويُصْلِحُ بالَكُمْ»[٢].

وصيغة هذا الدعاء: «يَرْحَمُكَ اللَّهُ» تسمَّى التشميت، وتُقال للعاطس على سبيل الاستحباب إذا حَمِد اللَّهَ تعالى، فإن لم يحمَدِ اللَّهَ فلا يُشَمَّت، وفي ذلك يقول النبي ﷺ:

«إذا عَطَسَ أحدُكمْ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتُوهُ، فإنْ لَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ فَلا تُشَمِّتُوهُ»[٣].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «عَطَسَ رَجُلانِ عِندَ النبيِّ ﷺ، فشَمَّتَ

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

أحـدَهمَا، ولم يُشَمِّتِ الآخَـرَ، فقالَ الّـذي لم يُشَمِّتْهُ: عَـطَسَ فُـلانٌ فَشَمِّتْـهُ، وعطَسْتُ فلَمْ تُشَمِّتْني؟ فقال: «هذا حَمِدَ اللَّهَ، وإنّكَ لمْ تَحْمَدِ اللَّهَ»[1].

ومن استعـراض هـذه الصيـغ التي حضّ النبـي ﷺ على قـولهـا في العُطاس يبرز الغرض الكبير منها في ذكر الله وحمـده، وتعزيـز وشائـج الإخاء والمودّة والتصافي بين المسلمين؛ فالعاطس يحمـد الله على تفريـج ما اعتمـل في رأسه من تحسسات وتفاعلات وتهيجـات، والسامـع يدعـو له بالرحمة إذا سمعـه يحمد الله، وحـامد الله يستحق دومـاً رحمةَ الله، فيقـابل العـاطسُ دعاءَ مشمّتـه بـدعـاء أطـول منـه وأشمـل، يفيض بمعـاني الخيـر والمحبـة والـودّ والإيناس.

وهكذا يوجه الإسلام الحوادث العفوية العابرة في حياة المسلمين ليتخذ منهـا مناسبـات تذكـر المسلمين بربهم، وتـطلق ألسنتهم بحمـده، وتعـزّز في نفوسهم وشائج الأخوّة والمودّة والتراحم.

ومن أدب العـطاس أن يضع الإنسـان يـده على فمـه، ويخفض صـوتـه ما استطاع، وهذا ما كان يفعله الرسول الكريم حين العطاس.

فعن أبـي هـريرة رضي الله عنـه قال: «كـان رسـولُ اللَّهِ ﷺ إذا عَـطَسَ وَضَـعَ يَـدَهُ أَوْ ثَـوْبَـهُ على فِيـهِ، وخَفَضَ ـ أو غَضَّ ـ بهـا صَـوْتَـهُ. شَـكَّ الراوي»[2].

لا يُحِدُّ نَظَرَهُ في بَيْتِ غَيْرِهِ:

ومن أدب المسلم في المجالس أنه لا يُحِـدُّ نظرَه في بيت جليسـه، ولا ينقّب عن العورات فيه؛ فذلك ليس من خلق المسلم الحيـيّ السِّتّير المؤدَّب.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وقد توعّد الرسول الكريم أصحاب العيون المرسلة في المجالس، المنقّبة المتفحّصة ثغراتها وعوارتها، وأحلّ فَقْءَ عيونهم، إذ قال:

«مَنِ اطَّلَعَ في بَيْتِ قَوْمٍ بغَيْرِ إذْنِهِمْ، فَقَدْ حَلَّ لهمْ أنْ يَفْقَؤوا عَيْنَهُ»[1].

لا يَتَشَبَّهُ بِالنِّسَاءِ:

وفي المجتمع الإسلامي السليم لا تجد المسلم يتشبه بالمرأة، ولا المرأة تتشبه بالرجل؛ ذلك أن تشبّه كل جنس بالآخر حرام في شِرْعة الإسلام، فالرجل في المجتمع الإسلامي رجل له صفاته وخصائصه ومهماته، والمرأة امرأة لها صفاتها وخصائصها ومهماتها، ولا ينبغي أن تزول الفروق بينهما في المظهر والمخبر سواء. ومن هنا اشتدّ الإسلام في وعيده المتشبّهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال.

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال:

«لَعَنَ رسولُ اللَّهِ ﷺ المُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجالِ[2]، والمُتَرَجِّلاتِ مِنَ النِّساءِ». وفي رواية: «لَعَنَ رسولُ اللَّهِ ﷺ المُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجالِ بالنِّساءِ، والمُتَشَبِّهاتِ مِنَ النِّساءِ بالرِّجالِ»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«لَعَنَ رسولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ المَرْأةِ، والمرأةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ»[4].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) هم الذين يتشبّهون بالنساء في حركاتهم وكلماتهم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

إن ما نشاهده اليوم في بعض المجتمعات الإسلامية من وجود نفر من الشباب أطال شعره حتى غدا كالفتاة يصعب التمييز بينهما، وبخاصة إذا علّق في عنقه سلسلة ذهبية تدلت على صدره المكشوف، ومن وجود فتيات ارتدين البنطالات الضيّقة المجسّمة والقمصان المشتركة بين الرجال والنساء، وقد كشَفْن رؤوسهنّ، وحسَرْن عن سواعدهنّ، حتى غدون كالشباب من الرجال، إن هذه المشاهد دخيلة على المجتمعات الإسلامية، وفدت إليها من الغرب الفاجر والشرق الكافر سواء، حيث عمّت موجات الهيبية والوجودية والعبثية والعدمية وما إلى ذلك من ضلالات زاغت بها البشرية، وانحرفت عن جادة الفطرة الإنسانية السوية، وكان من نتائجها الوخيمة وثمراتها المرّة هذا التيه الذي يتخبّط فيه شبابهم من الجنسين. وقد أصابنا منه شواظ ودخان، تلبّس بعض الشاردين والشاردات في مجتمعات المسلمين، في عهود الانتكاس والفتنة والشرود والضلال، حتى بدوا غُرَباء عن جسم الأمة الإسلامية، دُخَلاء على مجتمعها الأصيل المتميّز.